


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها


مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

تخصص :حضارة عربية إسلامية

# خصائص لغة "ابن قيم الجوزية" من خلال كتاب(مفتاح دار السعادة) نظام التراكيب أنموذجا.


إعداد الطالبة:

بوقاسم خديجة

إشراف الأستاذة:

د/سفير بدرية


*السنة الجامعية*

1434-1435هـ/2013-2014م


بسم الله الرحمن الرحيم



# شكر وعرفان

الحمد لله الذي شرح صدري ويسّر لي أمري وفقني لإتمام هذا العمل على أحسن وجه وأشكره عزّ وجلّ

على أن سخّر لي ما يعيني على بلوغ هذه الغاية، والذي هدانا لقراءة كتابه الحكيم والشكر له على توفيقنا

ونجاحنا في مشوارنا الدراسي.

إلى أستاذنا"**ساسي بدرية**" التي أشرفت على هذه المذكرة فكانت خير ناصح لي،فصوّبت وقوّمت،فلها

منّي خالص الشكر والامتنان وأن يجعلها ذخرا للأمة الاسلامية.

وأشكر الأستاذ المناقش"**عبد الحكيم والي دادة**"الذي أكرمني بطيب مناقشته وإثراء الرسالة بأفكاره ومعلوماته،فكان خير معين،فاستزدت منه خير الزاد،وتعلّمت أن النجاح يحتاج لمثابرة واجتهاد.

وإلى الأساتذة الذين كلفوا أنفسهم عناء تصفّح هذه المذكرة للوقوف على نقائصها وتثمين معلوماتها فجزاكم الله كل الخير.



# إهـــــداء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله ورعاهما كما ربياني صغيرا.

إلى أختي وإخوتي وزوجة الأخ الكبير.

إلى كتاكيت البيت ولآلئه.

إلى الأقارب والأحباب من الأعمام والعمات والأخوال والخالات.

إلى صديقاتي كل واحدة باسمها.

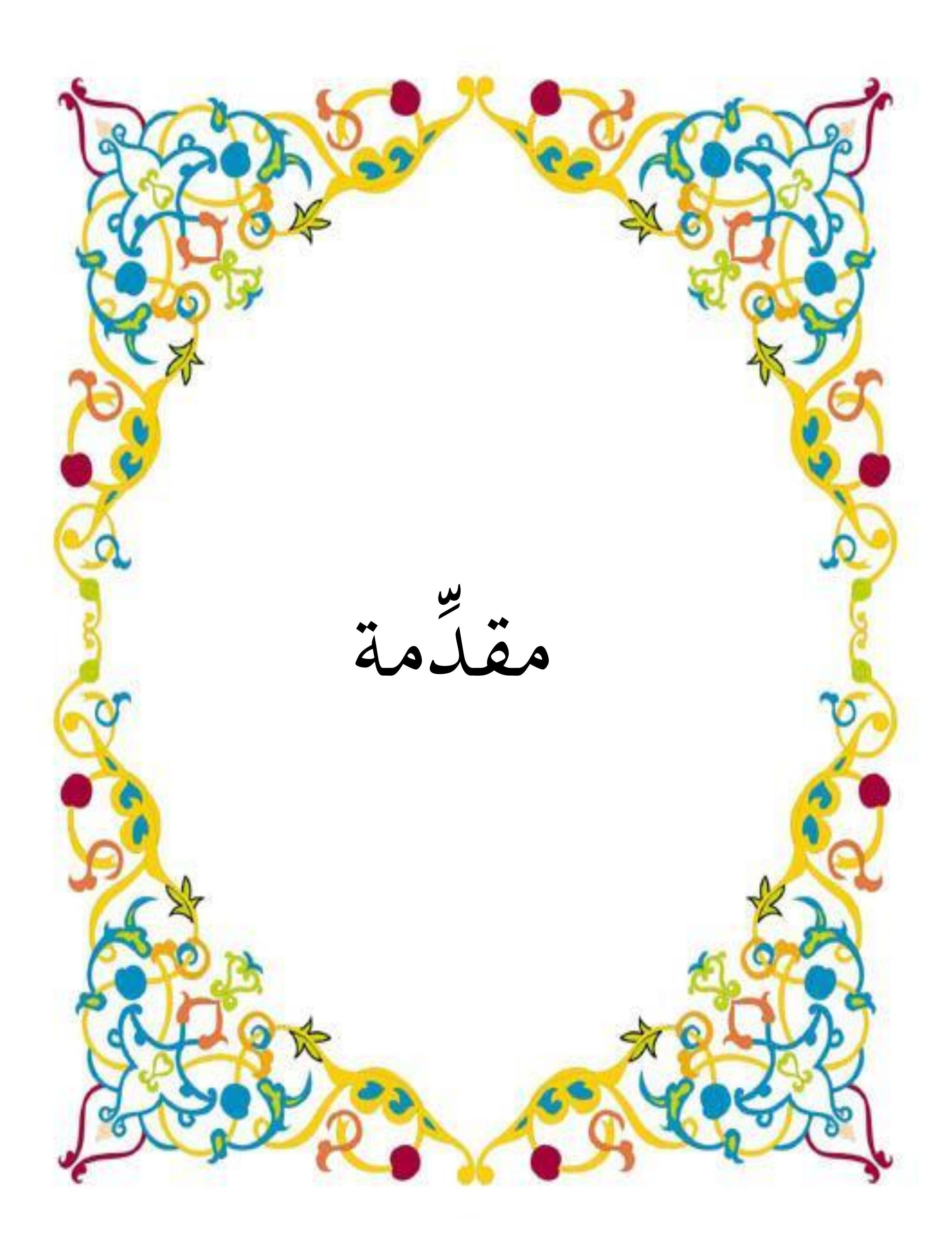
إلى كل من ساهم في هذا العمل من قريب أو من بعيد.

إلى كل المتخرجين دفعة الماستير2013م/2014م.

إلى كل من يعرف عائلة"بوقاسم"،"لطرش".

إلى كل من قدّم لي يد العون والمساعدة.

** بوقاسم خديجة **



# مقدِّمة

الحمد لله الّذي خلق الانسان،وعلّمه البيان،وجعل ميزته على غيره من أنواع الحيوان والصلاة والسلام على محمد الذي خصّ بمعجزة القرآن من جنس البيان،لتكون معجزة باقية على مرِّ الزمان،وحجّة ظاهرة للناس ما بقي على الأرض إنسان،وبعد:

إنّ العلم بحر زخّار،لا يدرك له قرار،وطود شامخ لا يسلك إلى قنّة ولا يصار،من أراد السّبيل إلى استقصائه لم يبلغ إلى ذلك وصولا ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلا،كيف وقد قال تعالى مخاطبا لخلقه:﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً..﴾ – الإسراء 85 –

ولما كان للقرآن من أهميّة ومكانة عظيمة عليّة،صُنعت فيه التصانيف وألّفت فيه التآليف،وكان من بين تلك المتون المختصرة،والكتب المحرّرة المشتهرة،كتاب(مفتاح دار السعادة)لابن قيِّم الجوزية،ولا يخفى على أحد حجم التراث العظيم الذي تركه"ابن القيِّم"–رحمه الله– والذي أصبح مرتعا خصبا لأهل العلم سواء كان من العلماء أوطلبه العلم،أو الباحثين أوالدّعاة أو المفكّرين.

تتكوّن مدوّنتنا(مفتاح دار السعادة) من ثلاثة أجزاء قام بتحقيقها "علي بن حسن بن علي عبد الحميد الحلبي الأثري"،وقام بمراجعتها فضيلة الشيخ"بكر بن عبد الله أبو زيد"وقامت بطبعها دار ابن القيِّم ودار ابن عفان سنة 2004م.

فعلى هذا الأساس عقدنا العزم بمشيئة الله تعالى على أن يكون عنوان بحثنا "خصائص لغة ابن قيِّم الجوزية من خلال كتاب(مفتاح دار السعادة) –نظام التراكيب أنموذجا–"ولقد وقع اختياري على هذا الموضوع بعد بحث وعناء وتنقيب وجهد،فأحببت هذا العنوان وأعجبتني الفكرة للخوض في غماره والاجتهاد في إنتقاء المعلومات عنه،فلم أتردّد في الكتابة فيه ويعدّ جزء لا يتجزّأ من الدِّراسة اللغوية والبلاغية على العموم،وما يحتويه من مواضيع تفتح الشهية لدراستها والبحث فيها.

وتتجلّى أهميّة الموضوع التي دفعتني إلى إختياره فيما يلي:إنّ العلامة"ابن القيم"كانت له اليد الطولى والقدم الرّاسخة في حقائق الاستنباط لما كان يتمتع به من جودة الفكر ودقّة

النّظر،الأمر الّذي مكّنه من تفهّم روح الكتاب والسنّة والاستشراق على أسرار الشريعة الاسلامية الغرّاء،ولما له من سحر البيان وجمال اللغة الّذين رفعوا أساليب اللغة إلى مستوى الجمل القرآنية،وهذا ما أكسب المعنى رونقا وجمالا وفائدة جمّة.

وفي طريقي لانجاز البحث واجهتني بعض الصعوبات في إنتقاء الكتب على الرّغم من أنّ مكتباتنا زاخرة بالمصادر والمراجع في شتى أنواع العلوم ، إلا أن هذا العنوان فيه من الكتب القليلة الناذرة عن هذا العلامة الجليل وحياته الفذة.

وقد اعتمدت"المنهج الوصفي"الذي يقوم على وصف الظاهرة اللغوية،ومن تمّ الحكم عليها لتبيين قيمتها،فالوصف هو عماد الدراسات،و"المنهج التحليلي"اعتمدته في تعاريف عن حياة هذا الرجل العظيم الفذ،و"المنهج المقارن"الذي يقوم على مقارنة المادّة المدروسة في كتب أخرى عالجتها ودرستها وما تعلّق بها من خصوصيات،و"المنهج الاستقرائي"استعمله لاستقراء الظواهر اللغوية واستخراجها بأحسن حلّة مميّزة.

وأمّا خطّة البحث كانت مبنية على مقدِّمة والتي عرضت فيها إلى سبب اختياري للموضوع والمنهج المتبع فيه،وفيها عرضت إلى تعريف للكتاب(مفتاح دار السعادة)"لابن قيِّم الجوزية"في بضعة أسطر لما فيه من مادّة يسيرة لمعرفة هذا الكتاب القيِّم،وقسّمتها إلى فصول ثلاثة،فكان *الفصل الأول* بعنوان:"ترجمة الامام"ابن قيم الجوزية"وفيه سبع مباحث هي:

المبحث الأول:إسمه ونسبه/المبحث الثاني:أخلاقه وعبادته/المبحث الثالث:طلبه العلم ورحلاته/المبحث الرابع:شيوخه وتلامذته/المبحث الخامس:مكانته العلمية وثناء العلماء عليه/المبحث السادس:أعماله وآثاره/المبحث السابع:محنته ووفاته.

وجاء*الفصل الثاني* الموسوم ب:"مفتاح دار السعادة أهمّيته ومنهجه"وضمّ سبع مباحث أيضا:

المبحث الأول:حول إسم الكتاب وإستمداده/المبحث الثاني:موضوعه/المبحث الثالث:منهج المؤلّف في كتابه/المبحث الرابع:طريقته في الاستدلال والترجيح/المبحث الخامس:حول تقسيم الكتاب/المبحث السادس:القيمة العلمية للكتاب وأهمّيته/المبحث السابع:المآخذ على الكتاب.



وجاء*الفصل الثالث والأخير*بعنوان:"الخصائص التركيبية عند ابن قيِّم الجوزية"والذي يحتوي على أربع مباحث وهي:

المبحث الأول:التقديم والتأخير/المبحث الثاني:الذكر والحذف/الاستثناء والقصر/المبحث الرابع:مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه.

ومن أهم المصادر التي اعتمدتها في رسالتي كثيرة منها:(مفتاح دار السعادة ومنشور أهل العلم والإدارة)"لابن قيم الجوزية"،و(الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن)"لابن قيِّم الجوزية"،و(البرهان في علوم القرآن)للزركشي وغيرها من الكتب.

وقد توصلت من خلال ذلك إلى نتائج مكّنتني من معرفة هذا الكتاب العظيم والقيّم وما فيه من فوائد جمّة ومعلومات تجعل كل واحد منّا ينهل من هذا العلم ومن ثروته المعرفية ،فأجده قد تفوّق في جميع الدراسات اللغوية والمسائل العلمية، وكان له من المواضيع النحوية الدالة على أسلوبه المتقن وعلامة على ثقافته الواسعة. فهو كنز لا يحصى من المعارف.

وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أشكر الأستاذة المشرفة التي كانت خير معين،وأفضل مرشد وناصح،وأنا ممتنّة لها على قبول الاشراف على هذه الرِّسالة،كما أقدّم شكري إلى هيئة التّدريس من أساتذة الذين كانوا شعلة نور لدربي الدّراسي والسهر على الاتيان بالجديد ليكون الطالب في أعلى المراتب وأسمى درجات في تحصيل العلم و المعرفة.

بوقاسم خديجة





# الفصل الأول

## ترجمة الامام "ابن قيم الجوزية "

المبحث الأول:إسمه ونسبه

المبحث الثاني:أخلاقه وعبادته

المبحث الثالث:طلبه للعلم ورحلاته

المبحث الرابع:شيوخه وتلامذته

المبحث الخامس:مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

المبحث السادس:أعماله وآثاره

المبحث السابع:محنته ووفاته

## المبحث الأول:إسمه ونسبه

إنّ من أهم الأمور اللاّزمة للحفاظ على دعوة من الدعوات أو فكرة أو رسالة أو هدف،هو وجود من يؤمن بتلك الدعوة أوالرّسالة أوالهدف فلابُّد لكل فكرة أو دعوة من رجال يحملونها ويروِّجون لها،ومن بين هؤلاء الذين كانوا مشعلا للعلم ونوره ويجتهدون لإيصاله إلى قرّائهم هو الفقيه،المفتي،الامام الرباني شيخ الاسلام الثاني"أبو عبد الله شمس الدِّين محمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب بن سعد بن حَرِيز بن مكي زين الدِّين الزُّرعيُ الأصل ثم الدِّمشقي الحنبلي الشهير بابن قيِّم الجوزية أو بابن القيِّم."[1]

والزّرعي نسبة إلى زُرع –بضم الزاي– قرية من حوران،وهي ناحية واسعة كثيرة الخير بنواحي دمشق،منها كانت تحصل غلاّتها.[2]

وقيِّم الجوزية(*)،هو والد الامام الشيخ"أبو بكر بن أيوب الزرعي"،إذ كان قيِّما على المدرسة الجوزية بدمشق،ومن أجل ذلك قيل له:ابن قيِّم الجوزية،ثم أطلق على الاضافة فقيل:ابن القيِّم.[3]

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقِّعين للعلامة ابن قيِّم الجوزية،إعداد:أبي عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري،تقديم:فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد،دار ابن القيم،دار ابن عفان،(دط)،(دم)،(دت)،ص36.

[2] المصدر نفسه:ص3

(*)– الجوزية:بفتح الجيم،وهي من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق(الشام)،نسبة إلى واقفها(ابن الجوزي)،وهو"محي الدِّين يوسف ابن الامام الواعظ المشهور أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن الجوزي القرشي البكري البغدادي الحنبلي(ت656هـ)،وقيل:نسبة إلى محلة البصرة،وقيل:إلى الجوز وبيعه،أمّا الجوزية بضم الجيم فهو نسبة إلى طير صغير بلسان أصفهان ينظركتاب(ابن قيم الجوزية حياته وآثاره:ص19–24–26)

[3] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين ابن القيم:ص36

ولد الامام –رحمة الله عليه–في سابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (691هـ/1692م)،ونشأ في كنف بيت علم وفضل ودين وصلاح،مشهور بالأصالة مذكور بالجِلالة،شَهود له بالعدالة وهذه إلماعة عن آل ابن القيِّم رحمهم الله.[1]

والده"أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي"،قيِّم الجوزية،كان رجلا صالحا متعبِّدا فاضلا،قليل التكلّف ،وكان له في علم الفرائض يد طولى،وكانت جنازته حافلة،وأثنى عليه الناس خيرا.[2]

وابنه"جمال الدين"،كان مفرط الذكاء قال الحافظ بن كثير:"كانت لديه علوم جيّدة،وذهنه حاضر خارق،أفتى ودرّس وأعاد وناظر،وحجّ مرّات عديدة رحمه الله،وبلّ بالرحمة ثراه."[3]

استخلف أباه في الدّرس بالصّدرية،قال"ابن كثير":"وفي اثنين ثاني عشر شهر شعبان ذكر الدرس"عبد بن الشيخ الامام عوضا عن أبيه فأفاد و أجاد وسرد طرفا صالحا في فضل العلم وأهله."[4]

وابنه"برهان الدِّين"،أخذ عن والده وغيره،وكان فاضلا بارعا في النّحو والفقه وفنون أخرى على طريقة والده،وأفتى ودرّس بالصدرية وشرح ألفية ابن مالك."[5]

وأخوه"زين الدين"كان إماما وقدوة،وسمع وحدّث وذكره"ابن رجب"في كتابه(ذيل طبقات الحنابلة)في مشيخته،توفي ليلة الأحد ثامن من شهر ذي الحجة سنة(729هـ)وله ستّ وسبعون سنة.[6]

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين :ص36

[2] المصدر نفسه،ص37

[3] البداية والنهاية،الامام الحافظ بن كثير،مج7،ج14/13،اعتنى بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون،دار المعرفة،ط9،بيروت،1426هـ/2005م،ص235.

[4] المصدر نفسه:235/14

[5] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص38

[6] المصدر نفسه:ص39

وابن أخيه"عماد الدين"كان من الأفاضل،واقتنى كتبا نفيسة،وهي كتب عمّه الامام"ابن القيم"–رحمه الله–وكان لا يبخل بإعارتها،وكان خطيب جامع خليجان،توفي يوم السبت خامس عشرة من شهر رجب سنة 799هـ.[1]

يعتبر"ابن القيمّ"–رحمه الله–علما من أعلام الفكر الاسلامي في عصره،مما يدفعني إلى الحديث عن السّمات التي تميّز بها في الحياة الفكرية،وكان ذا حسب ونسب وذو جذور متفرّعة مختلفة ومتنوّعة.

**المبحث الثاني:أخلاقه وعبادته:**

لقد كان الامام"ابن القيم"جامعا لأشتات الفضائل،وأنواع المحاسن ذا أخلاق زكية،وأعمال مرضية مع سلامة الصّدر والطّبع،والفضل والنبل،وحسن النية وطيب الطوية،لهذا قال تلميذه البار"الحافظ بن كثير"–رحمه الله–مشيّدا بأخلاقه الحسنة وصفاته الحميدة:"كان حسن القراءة والخلق،كثير التودّد،لا يحسد أحدا،ولا يؤذيه،ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد،وكنت من أصحب الناس له وأحبّ الناس إليه...وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة."[2]

وكان رحمة الله عليه كثير العبادة والخشوع،مع كثرة الطلب ليلا ونهارا وكثرة الصلاة والابتهال،وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا،ويمدّ ركوعها وسجودها ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك.[3]

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص39

[2] البداية والنهاية،للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي القرشي،ج18،تح:د/عبد الله بن عبد المحسن التركي،بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية الاسلامية،دار الهجر للطباعة والنشر والتوزيع ،ط1، (دم)،1419هـ/1988م ص523 .

[3] المصدر نفسه:523/18.

وملازم الانابة والخضوع،دائم الابتهال والافتقار والعبودية والاضطرار وقد ذكر معاصريه العلامة "الصفدي"قصيدته الميمية الرقيقة في الضراعة والتواضع وهضم النفس وقال إنه أنشدني إياها من لفظة لنفسه[1] وهي:

بُنَـــيٌّ أَبِي بَكْرٍ كَثِيرَ ذُنُوبُهُ * فَلَيْسَ عَلَى مَنْ نَالَ مِنْ عِرْضِهِ إِثْمُ.

بُنَـــيٌّ أَبِي بَكْرٍ جَهُولُ بِنَفْسِهِ * جَهُولُ بِأَمْرِ اللهِ أَنَّ لَهُ العَلَـــــمُ.

بُنَـــيٌّ أَبِي بَكْرٍ غَدَا مُتَصَدِّرًا * يُعَلِّمُ عَلَمًا وَهُوَ لَيْسَ لَـــهُ عَلَـــمُ.

بُنَـــيٌّ أَبِي بَكْرٍ غَدَا مُتَمَنِّيًا * وَصَالَ المعَالِيَ وَالذُّنُوبُ لَـهُ هَـــمٌّ.

بُنَـــيٌّ أَبِي بَكْرٍ يَرُومُ تَرَقِّيًا * إِلَى جَنَّةِ المأْوَى وَلَيْـسَ لَـهُ عَـزْمُ.[2]

وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات معتكفا على الذكر وأنواع القربات،مصروف العناية إلى مراقبة الله تعالى،ومحبته والأنس به،مشهورا بالتهجّد والورع والزهد،مذكورا بكثرة صلاته والإقبال على عبادة ربّه،وكتبه ك(مدارج السالكين )و(الفوائد)و(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان )و(طريق الهجرتين )و(الرسالة التّبوكية)ونحوها خير شاهد،وأفضل ناطق على ذلك،بل ولقد شهد له بذلك تلامذته ومترجمو حياته.[3]

---

[1] ابن قيّم الجوزية حياته وآثاره وموارده،بكربن عبد الله أبو زيد،دار العاصمة للنشر والتوزيع،ط1،المملكة العربية السعودية ،1412هـ ص45-47.

[2] ينظر(الوافي بالوفيات)صلاح الدين خليل بن إبيك الصّفدي،ج2،طالعه:يحي بن حجى الشافعي بن إبيك الصّفدي أحمد بن مسعود،تح:أحمد الأرناؤوط،دار الإحياء التراث العربي،ط1،بيروت،1420هـ/2000م،ص196.

[3] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين :ص40

"وكان إذا صلّى الصّبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار ويقول:هذه غدوتي لولم أقعد سقطت قواي،وكان يقول:بالصبر والفقر تنال الامامة في الدين،وكان يقول:لابّد للسالك من همّة تسيِّره و ترقيه،وعلم يبصّره،ويهديه."[1]

يبقى "ابن القيِّم"مفخرة واعتزازا لنا ،وذا أخلاق عالية نقتدي بها في كل زمان و مكان.

**المبحث الثالث:طلبه العلم ورحلاته**

عُرف عن"ابن قيم الجوزية"الرغبة الصادقة والجامحة في طلب العلم والجدِّ والتفاني في البحث،"فنشأ الامام في بيت دين وعلم وفضل وحظي بتوجيهه توجيها علميا سليما،إضافة إلى البيت العلمي شهد عصره نهضة علمية فائقة،حيث كانت دمشق وقتئذ عامرة بالعلماء والمساجد المدارس والمكتبات،ودور التعليم حتى صارت قبلة لطلاب العلم يأتون إليها من كل فج عميق،ومن كل مكان سحيق،... "[2]

ففي تلك البيئة العلمية،بدأ الامام"ابن القيم"يشتغل بطلب العلم ويعكف على تحصيله منذ نعومة أظافره،"وانبرى للطلب في سنّ مبكرة وعلى وجه التحديد في السابعة من عمره."[3]

فإنّ النّاظر إلى ترجمة"ابن القيم"يلمس منه الرّغبة في الطلب والجد العظيم في البحث والنّظر والحرية في التلقي عن الشيوخ من الحنابلة وغيرهم،والتفاني في سبيل العلم وامتزاج ذلك بلحمه ودمه.[4]

فإنّ كثرة سماعه لشيوخه ووفرة علومه التي أتقنها وتفنّن فيها مع أنّ مدّة مقامه في هذه الدنيا تقارب ستين عاما تعطينا دليلا ماديا أيضا على صدق هذه النتيجة،وإن العلوم التي تلقّاها وبرع فيها تكاد تعمّ علوم الشريعة،فقد درس التوحيد،وعلم الكلام،والتفسير والحديث والفقه وأصوله والفرائض

[1] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،للقاضي العلامة شيخ الاسلام محمد بن علي الشوكاني،ج2،دار الكتاب الاسلامي ،(دط)،القاهرة،(دت)، ص144

[2] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص51

[3] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده،لبكر بن عبد الله أبو زيد :ص49

[4] المرجع نفسه:ص49

واللغة والنحو وغيرها على علماء عصره المتفنِّنين في علوم الاسلام وبرع هو فيها،وعلا كعبه وفاق أقرانه،ويكفي في الدلالة على علو منزلته أن يكون هو شيخ الاسلام"ابن تيمية"[1]

وهذه البراعة في الطلب نجدها محل اتفاق مسجّلا لدى تلاميذ الكبار ومن بعدهم من تفات النقلة الأبرار هذه جمل من تقييداتهم في ذلك ومنهم:"السيوطي"الذي قال:"قد صنّف وناظر واجتهد وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية."[2]

وقال"الشوكاني":"برع في شتى العلوم وفاق الأقران واشتهر في الأفاق وتبحّر في معرفة مذاهب السلف."[3]

هذا نموذج من طائفة لأقوال الأئمة في بيان منزلة "ابن القيم"في الطلب والتحصيل،وفي إثبات مؤلفاته لبيان ما ألّفه في كل فن،فالعالم أمام الطالب كالرّوضة الغنّاء يقطف منها ما يشتهي نفسه من كل ثمرة ويشمّ كل رائحة عطرة.

فأمّا عن رحلاته،فقد حجّ مرّات كثيرة،وجاور بمكّة وقدم القاهرة غير مرّة،وقد أشار الامام "ابن القيم"إلى رحلته إلى مصر في بعض كتبه.[4]

فالرِّحلة في الطلب أمر معهود لدى أهل العلم،فلا تكاد تقع عين ناظر على ترجمة عالم ما،إلا ويجد فيها بيان رحلاته في الطلب لتلقي العلوم عن الشيوخ،والإكثار من السماع والتّحري في الرِّواية.[5]

و"ابن القيم"واحد من أولئك العلماء الأفذاذ فلابُّد أن يكون قد ارتحل في الطلب للعلم،لكن لا نرى مترجميه يعنون بذكر ذلك سوى ما ذكروه من حجّاته،ولهذا يذكر لنا"ابن القيِّم"في مناسبات من

[1] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده لبكر أبو زيد:ص51

[2] بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة،للحافظ جلال الدِّين بن عبد الرّحمن السيوطي،ج1،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر،ط2،(دم)،1399هـ/1979م،ص63

[3] البدر الطالع للشوكاني:143/2

[4] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين :ص52

[5] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده:ص55

كتبه أحواله وهو في مكة حرم الله تعالى وأمنه منها:تأليفه كتاب(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)مدّة مقامه بمكّة حرسها الله تعالى فيقول في أواخر مقدِّمته[1] له:"إذا كان هذا بعض النّزل (*)والتّحف الذي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي إليه عند بيته،وإلقائي نفسي ببابه مسكينا ذليلا وتعرّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا،فما خاب من أنزل به حوائجه،وعلّق به آماله،وأصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا"[2]

وهذه إلماعة عن مرحلة الطلب والتحصيل عند"ابن القيم"يتجلى للناظر فيها مدى تفانيه في الطلب وبراعته في جملة وافرة من العلوم،وأنّه قد ارتحل في سبيل العلم وأفنى حياته متقلّبا في أعطافه في رحله وترحاله في سفره وإقامته وأنّ شدّه الرّحال لحجّه والمجاورة بمكة كانت أسفارا مشحونة بالعلوم وتدوينه وصدق التعبّد واللّهج بذكر الله والتعلّق به وفي هذه اللّطائف مدّة مقامه بمكة دليل على ذلك.[3]

وأنّ السفر والبعد عن الأهل والأولاد والوطن لم يشغله شيء من ذلك عن التّأليف والنظر،فإبن القيم وإن سافر لا يحمل إلا زادا ومزادة ،فمكتبته في صدره ويكفي في هذا أنّه ألّف جملة من كتبه في حال سفره عن وطنه وبعده عن مكتبته وهي:

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم و الارادة.
- روضة المحبّين ونزهة المشتاقين .
- زاد المعاد في هدي خير المعاد.
- بدائع الفوائد.

---

[1] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده:ص56-58

*- العطاء

[2] مفتاح دار السعادة ومنشور أهل العلم و الارادة،للعلامة الامام شيخ الاسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ج1،قدّم له:علي بن حسين بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري،راجعه:فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبوزيد،دار ابن عفان للنشر والتوزيع،ط1،المملكة السعودية العربية،1416ه/1996م،ص216

[3] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده:ص60

- تهذيب سنن أبي داود.
- الفروسية.[1]

فابن القيِّم الجوزية موهبة متحرِّكة تنبض بالعقل الواسع والفكر الخصْب،والحافظة المدهشة والقدرة العجيبة،فلا عجب إذا رأيناه يزاحم الرّكب في شتى الحلق على أعداد متكاثرة من الشيوخ بروح متعطِّشة ونفس متألِّقة ليشفي غلّته ويروي نهمته فينهل من كل عالم متخصِّص حتى تفنّن في علوم الاسلام وصارت له اليد الطولى في فنون شتى.

## المبحث الرّابع:شيوخه وتلامذته

إنّ شهرة الامام"ابن القيم"ومكانته العلمية جعلت الفضلاء يعظِّمونه ويتتلمذون عليه ويكِّبون على الأخذ عنه وكثر الآخذون عنه وازدحمت مجالسه بالأئمة،وتلقى عن الكثير من العلماء في ذلك الحين ومن الشيوخ الّذين اتّخذهم مثلا أعلى له وترك أثرا في نفسه هو *ابن تيمية*،"فقد لزمه منذ سنة 712ه إلى سنة 728هـ،وأخذ عنه الكثير من آرائه ونهج في محاربة المنحرفين عن عقيدة السلف."[2]

وابن تيمية،من أشهر فقهاء الحنابلة وأكبر مفكري الاسلام وأغزرهم نتاجا،ولد بحران القريبة من دمشق سنة661هـ،وقد برع علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغير ذلك،وكان يتمتع بذكاء مفرط وذاكرة قوّية مكَّنته من الحفظ وسرعة الاستحضار والتوسع في المعقول والمنقول،والإطلاع على مذاهب السلف والخلف،هو وإن كان حنبليا،فقد كان لا يرى المذهب الحنبلي في بعض المسائل حتى قال بعض العلماء:إنّه لا يتقيّد بمذهب.[3]

[1] ابن قيم حياته وآثاره وموارده:ص60

[2] ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن ،د/عبد الفتاح لاشين،دار الرّائد العربي،ط1،بيروت،1402هـ/1982م،ص18

[3] المرجع نفسه:ص18



وقد جلبت عليه حرّيته في الجدل والمناظرة وحدّته في المناقشة عداوة كثير من العلماء في عصره،وأدّى ذلك إلى دخوله السّجن عدّة مرّات، ومع ذلك كان لا يتجلّى عن مهاجمته لأصحاب البدع،وقد وافته المنية وهو في السّجن عام 728هـ .[1]

ومن شيوخه أيضا "الشهاب العابر"المتوفي سنة 697هـ ،فيكون على هذا بدأ بالسماع وهو في السابعة من عمره وقد أثنى "ابن القيم"على شيخه الشهاب.[2]

وأشرف على النهاية في الطلب ومعنى هذا أنّه أتقن العربية وهو دون التاسعة عشرة من عمره،وهكذا في عدد من شيوخه وأساتذته .[3]

وقد أخذ "ابن القيم"عن مشاهير من أسماء شيوخه،حيث أسند ركبتيه إلى ركبتيهم،وبيان ما أخذ عنهم رحمهم الله وهم:

1. والده أبو بكر:أخذ عنه الفرائض.
2. ابن عبد الدائم:هو أبو بكر بن زيد الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة النابلسي الأصلي،الصالحي،سمع عنه الحديث.
3. شيخ ابن تيمية:هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني ثمّ الدمشقي الحنبلي.[4]

---

[1] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ،لد.عبد الفتاح لاشين:ص18

[2] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره:ص49

[3] المرجع نفسه:ص50

[4] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص53-54،وينظر(الوافي بالوفيات للصفدي :271/2)،وينظر (البدر الطالع للشوكاني:143/2).

*- هوكتاب في الفقه الحنبلي المعروف.

*- هومجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن الخضر الحرّاني بن تيمية،ولد سنة590 وتوفي 652هـ،من آثاره(المنتقى من أحاديث الأحكام)

أخذ عنه الفرائض والفقه والأصلين،وقد أبان العلامة"الصفدي"الكتب التي قرأها عليه فقال:"قرأ عليه الفقه قطعة من المحرّر(*) تأليف جدِّه (*) والأصول قطعة من المحصول،ومن كتاب (الأحكام)للسيف الآمدي،وقرأ عليه في أصول الدين قطعة من"الأربعين"والمحصّل وكثيرا من تصانيفه."[1]

4.الشهاب العابر:هو أبو العباس أحمد بن عبد الرّحمن بن عبد المنعم بن نعمة،شهاب الدين النابلسي الحنبلي،سمع عنه الحديث أيضا.[2]

وقد تخرج به جماعة في أنواع العلوم والفنون وأشهر تلامذته:

1. برهان الدين بن الامام .
2. جمال الدين بن الامام.
3. الحافظ بن كثير قال:"وكنت من أصحب الناس له، وأحبّ الناس إليه."[3]
4. الحافظ زين الدين أبو الفرج بن عبد الرحمن بن رجب صاحب كتاب (ذيل طبقات الحنابلة).
5. شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي صاحب كتاب (مختصر طبقات الحنابلة) وكذلك ولده"عبد الله"الذي تولى التدريس بالمدرسة الصدرية بعد وفاة أبيه.[4]

فكان لهذه الملازمة أثر بالغ في نفس"ابن قيم الجوزية"،فشارك شيخه في الذّب عن المنهج السلفي،وحمل رايته من بعده،وقد تتلمذ على يده الكثير من طلاب العلم للذين حملوا راية شيخهم وداع صيتهم في كل أنحاء البلاد.

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين لابن القيم :ص56

[2] البداية والنهاية:523/18

[3] المصدر نفسه:523/18

[4] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن :ص30

## المبحث الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

قد تميّز"ابن القيم"بثبات الرّأي،كما أنّه يُنبيء عن شخصية قويّة لا تميل عن اعتقادها مهما أصابها من بطش أو تعذيب،"وكان باحثا قويّ الشخصية لا يتأثر بغيره،ولا يلتزم برأي غيره،وقد تعرّض لمثل ما تعرّض له شيخه"ابن تيمية"من العذاب والتنكيل،وفي مسائل قد تكون متشابهة،إذ مصدرها حريّة الرّأي والبحث الحرّ،إلا أنّ"ابن تيمية"حاد الطّبع،عنيف الثورة على أصحاب البدع والمخالفين للسنّة،فكان لا يميل إلى المهادنة والموادعة لأصحاب البدع والفرق الاسلامية الخارجة وأصحاب الدِّيانات المخالفة وكان لا يقبل أن يرجع عما يرى أنّه الحقّ."[1]

لقد برع الامام في أنواع العلوم،ومعرفته لشتى الفنون،وقد ضرب في كل فن من العلم بسهم وافر،وشهرته تغنى عن الاطناب في ذكره،والإسهاب في أمره وصدق في قول القائل:

مَاذَا يَقُولُ الوَاصِفُونَ لَهُ * وَصِفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الحَصْرِ.

هُوَحَجَّةُ لِلَّهِ قَــاهِــــرَةُ * وَبَيْنًا أُعْـجُـوبَـةُ الـدَّهْـرِ.

هُوَ آيَةٌ لِلْخَلْقِ ظَاهِرَةُ * نَوَارُهَـا أَرْبَتْ عَلَى الفَجْـرِ.

وقد اشتهر أمره، وارتفع ذكره، وعلا صوته،وبَعُدَ صيته،حتى صار من الأئمة المشار إليهم بالبنان،ومن الفرسان الذين لا يشق غبارهم على حلبة الرِّهان شهد له العلماء بالسَّبق والتقدّم في العلم،واجتمعت ألسنة الفضلاء على مدحه والثناء عليه.[2]

حيث قال تلميذه الحافظ"ابن كثير":"سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعدِّدة لاسيما علم التفسير والحديث والأصلين(*) ،ولما عاد الشيخ "تقي الدين بن تيمية"من الدِّيار المصرية في سنة

---

[1] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن:ص34

[2] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص69-70

(*) يقصد به في الكتب:"العلم والإرادة" ينظر(مفتاح دار السعادة ج1 لابن القيم)

اثنتا عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جمًّا مع سلف له من الاشتغال فصار فريدا في بابه من فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا،وكثرة الابتهال."[1]

وقال العلامة الصفدي:"اشتغل كثيرا وناظر واجتهد وأكبّ على الطلب،وصنّف وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول فقها وكلاما،والفروع والعربية ولم يخلِّف الشيخ العلامة ابن تيمية مثله."[2]

وقول السيوطي الذي ذكرناه آنفا:"صنّف وناظر واجتهد،وصار من الأئمة الكبار في التفسير..."[3]

وقول الشوكاني:"برع في جميع العلوم،وفاق الأقران،واشتهر في الأفاق وتبّحر في معرفة مذاهب السلف."[4]

ومن هنا نستنتج أنّ"ابن القيم"كان على دراية بفنون كثيرة في مختلف العلوم من تفسير وفقه وأصول وفَهْمِ منطوقها ومفهومها.

## المبحث السادس: أعماله وآثاره

ارتبطت حياة"ابن القيم"العملية بحياته العلمية ارتباط الروح بالبدن فلم تخرج أعماله التي سجّلها التاريخ عن محيط العلم وخدمته والمثابرة على ذلك تعليما وإقراء ودرسا وتأليفا،"فإن ممّا امتن الله تعالى به على الامام"ابن القيم"أن جمع له العلم والعمل وقد ظهر أثر علمه في أعماله التي قام بها مدّة حياته،فقد أمّ بالمدرسة الجوزية مدّة، وخطب الجمعة بجامع خليجان في سلخ رجب سنة(736هـ)،وهو

[1] البداية والنهاية :234/14

[2] الوافي بالوفيات للصفدي:196/2

[3] بغية الوعاة للسيوطي:63/1

[4] البدر الطالع للشوكاني:143/2

أوّل من خطب به،كما تصدّر للاشتغال والإقراء ونشر العلم،حيث درّس بالمدرسة الصّدرية(*) ،فأفاد وأجاد،وانتصب للتدريس بها في يوم الخميس سادس من شهر صفر سنة(743هـ)."[1]

فله من التصانيف الكبار والصّغار شيء كثير،وكتب بخطّه الحسن شيئا كثيرا،واقتنى من الكتب ما لا يتهيّأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف و الخلف.[2]

كما تصدّى للإفتاء بمسألة الطّلاق التي اختارها الشيخ "تقي الدين بن تيمية"،وجرت بسببها فصولا يطول بسطها مع قاضي القضاة"تقي الدين السّبكي"،وقد كانت جنازته حافلة،شهدها القضاة والأعيان والصّالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه كمل له العمر ستون سنة.[3]

وقد امتُحن عدّة مرات بسبب بعض فتاويه أيضا فأوذي وسجن،كما كان يناظر أهل البدع والأهواء لينصر الحق ويدحض الباطل،ويناقش المذاهب الفقهية بالحجة والبرهان ويجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ،وكان يرى وجوب مناظرتهم بمصلحة الاسلام لإقامة الحجة عليهم.[4]

ونستطيع أن نحصر أعماله من خلال كتب التراجم له على مايلي:

- الامامة بالجوزية.
- التصدي للفتوى.
- التدريس بالصدرية وأماكن أخرى.
- التأليف.[5]

---

*-الصدرية:هي نسبة إلى واقفها صدر الدين أسعد بن عثمان بن المنجا (ت657هـ)

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص73-74

[2] البداية والنهاية:524/18

[3] المصدر نفسه:524/18

[4] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين :ص74

[5] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده:ص65

صنّف الامام"ابن قيم الجوزية"تصانيف كثيرة في مختلف العلوم وقد جمعها الشيخ العلامة "بكر بن عبد الله أبو زيد"في كتابه(ابن قيم الجوزية حياته،آثاره،موارده)،فقد أحصاها أحد الباحثين فوجدها تبلغ 96 كتابا في العلوم والمعارف منها المطبوع ومنها المخطوط في التوحيد وعلم الكلام،وعلوم القرآن والحديث وعلوم الفقه وأصوله وغير ذلك من موارد الثقافة ومناهل العرفان.[1]

هذه نبذة من أسماء أعيان المصنّفات الكبار،فله في الفقه وأصوله (إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين)و(أحكام أهل الذِّمة)وفي الحديث وعلومه له(تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته وعلله)،(المنار المنيف والصّحيح والضعيف)وفي السيرة(زاد المعاد في هدي خير العباد)وفيه أبحاث فقهية،وفي العقائد والرّد على الفرق وله:(شفاء العليل في مسائل الفضاء والقدر والحكمة والتعليل)و(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)وفي النحو(الكافية الشافية في النحو)وفي الأخلاق والزهد والرّقائق له(مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين)،(إغاثة اللّهفان من مصايد الشيطان)وفي العلوم المختلفة(بدائع الفوائد)،(الفوائد)،(مفتاح دار السعادة ومنشور أهل العلم والإرادة).[2]

لقد أبدع"ابن القيم"في كثير من المصنّفات،وضرب بحظ وافر في علوم شتى ،ويظهر هذا الأمر جليّا لمن استقصى كتبه التي كانت للمتقين إماما، وأفاد منها الموافق والمخالف.

## المبحث السابع:محنته ووفاته

لقد كان الامام–رحمه الله– قويّ الشخصية جريء الجنان محكّما للدليل،منقادا للحجّة،صادعا بالحقِّ المرِّ،"إذ كان لا يجابي فيه أحدا،ولا يبالي بمن خالفه كائنا من كان،ولقد أصاب بسبب بعض فتاويه أنواع الأذى،وناله بسبب آرائه أصناف الشذى."[3]

[1] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن :ص30

[2] ابن القيم الجوزية حياته وآثاره وموارده:ص79-80

[3] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص44

ووقعت له بسبب هذا محنة مع بعض القضاة —ذكرناها آنفا-وذكرها"ابن كثير"فقال:"وكان متصديّا للإفتاء بمسالة الطلاق التي اختارها الشيخ"تقي الدين بن تيمية"وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره."[1]

وفي ليلة الخميس ثالث عشرة رجب،وقت أذان العشاء توفي الامام الشيخ العلامة "شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية،وابن قيّمها.[2]

توفي بدمشق سنة 751هـ فزهرة حياته كانت في النّصف الأوّل من القرن 8هـ [3]،وصلى عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي،ودفن عند والدته بمقابر الباب الصّغير،فرحمة الله تعالى عليه[4]،وأدخله فسيح جنانه.

ذلك هو حامل لواء الأمّة التي كانت في أمس الحاجة لمن يحمل علم هذا الأستاذ الجليل،ويروّج لآرائه وأفكاره التي مثّلت سراجا منيرا وسط ظلام جامد والتعصّب المذهبي والبدع الفاشية في عصره.

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص44-45

[2] البداية والنهاية:523/18

[3] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن :ص47

[4] المصدر السابق:523/18



## الفصل الثاني

## مفتاح دار السعادة "أهميته ومنهجه"

المبحث الأول:حول إسم الكتاب واستمداده

المبحث الثاني:موضوعه

المبحث الثالث:منهج المؤلف في كتابه

المبحث الرابع:طريقته في الاستدلال والترجيح

المبحث الخامس:حول تقسيم الكتاب

المبحث السادس:القيمة العلمية للكتاب وأهميته

المبحث السابع:المآخذ على الكتاب

## المبحث الأوّل: حول اسم الكتاب واستمداده

يعتبر كتاب(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة)من الكتب القيمة"لابن القيم"الذي احتوى على عدّة مواضيع مختلفة ومتنوعة،وقد غدا من المهم أن تفرّق بين كتبه التي صُبغت بصِبغة رائعة وفائدة جمّة،وذي أهمِّية كبيرة لدى العلماء والفقهاء أن يدرِّسوا منهج هذا الكتاب ويتعرّفوا على دسائسه متمتعين بهذه الفائدة،"ولمعرفة ما يحتويه الكتاب من معرفة علمية وفوائد حديثيه وفقهية وغير ذلك،فقد عُقد هذا المبحث بمقاطع التالية"[1]:

### أ-نسبة الكتاب إلى ابن قيم الجوزية:

قد اختلفت الآراء في تسمية هذا الكتاب ونسبته إلى مؤلِّفه، فهناك من ينسبه إليه،وهناك من لاينسبه له،"ولهذا اشتهر كتاب (مفتاح دار السعادة) نسبة إلى الامام "ابن قيم الجوزية"-رحمه الله- إلى أنّ مخطوطات الكتاب جميعها تحمل في طياتها اسم المؤلِّف،وبعضها ذكر ذلك في ختامها أيضا."[2]

وأنّ أهل العلم ينقلون عنه وينسبون إليه،مثل السيوطي في(شرح سنن النسائي:141/3)،والزبيدي في(شرح الاحياء:187/1)،وكان"ابن القيم"نفسه قد عزا إليه –ناسبا إيّاه لنفسه- في عدد من مؤلفاته كما في(المدارج:91/1-490/3)و(زاد المعاد:114/3)،(إغاثة اللهفان :125/2)[3]

وأنّ سائر من ترجم للمؤلف ذكر هذا الكتاب من تواليفه،كإبن رجب في(ذيل طبقات الحنابلة: 450/2)،وابن حجر العسقلاني في(الدرر الكامنة :271/2)والصفدي(الوافي بالوفيات:271/2)، السيوطي في(بغية الوعاة:63/1)الدّاودي في(طبقات المفسِّرين 93/2).[4]

---

[1] ينظر كتاب(مفتاح دار السعادة)لابن القيم:53/1

[2] مفتاح دار السعادة:30/1

[3] المصدر نفسه:30/1

[4] المصدر نفسه:31/1

ومن هنا نستنتج أنّ نسبة الكتاب تعود إلى مؤلّفها –ابن القيم- على حسب الأقوال والآراء من قبل عدّة مؤلِّفين في مصنّفاتهم وكتبهم التي دلّت على ذلك.

**ب-** تسميته بلفظ(مفتاح دار السعادة):

رغم كثرة الآراء حول نسبة الكتاب إلى–ابن القيم–ومؤلفه إلا أنّه قد أبرع في تسميته وإعطاءه ألفاظا خارقة للعادة والتي تكسبه رونقا جميلا،ولهذا أشار الامام ابن قيم الجوزية وقال:"وسمّيته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة."[1]

إنّما سمى"ابن القيم"كتابه ب(مفتاح دار السعادة)على عادته في إبداع أسامي مؤلفاته لتدفق صدره ببث ما ألهم الفتاح عليه من النِّعمة في التدبّر القرآن الكريم،والغوص في بحر الدين والفقه والشريعة،وإذا تأملنا كلمات هذا العنوان،رأينا أنّ لها في اللّغة معان وهي كالتالي:

- مفتاح:ورد في معجم الوسيط:"فتح بين الخصمين فتحا:قضى،وفي التنزيل العزيز جاء في قوله تعالى:﴿رَبَّنَا افْتَح بَيْنَنَا وَبيْنَ قَوْمِناَ بِالحَقِّ..﴾[2] وعليه هداه وأرشده،يقال:فتح على القارىء،لقّنه ما نسبه فقرأه وهيّأ له سبل الخير[3] ،والمفتاح:آلة الفتح(ج)مفاتيح ومفاتح[4]،وفي التنزيل العزيز يقول تعالى:﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِح الغَيْبِ..﴾[5]
- دار: ورد في المعجم الوسيط:"الدّار:يقال:رزق دائم لا ينقطع."[6]

[1] مفتاح دار السعادة:215/1

[2] سورة الأعراف:89

[3] معجم الوسيط،مجمع اللّغة العربية(الارادة العامّة للمعجمات وإحياء التراث)،ج3،جمهورية مصر العربية،ط1،مكتبة الشروق الدولية،1425ه/2004م (مادة فتح)،ص671

[4] المصدر نفسه:672/3

[5] سورة الأنعام:59

[6] معجم الوسيط،(مادة دار)،ج3،ص279،والجمع دُرَّارُ،دُرَرُ،دَرَرُ.

- السعادة: ورد في معجم الوسيط أيضا:"السعادة معاونة الله للإنسان على نيل الخير،وتضاد الشقاوة."[1]

وهذه التسمية سليمة تنتظم موضوع الكتاب ومادّته،فهذا الكتاب حقّا يمثل"مفتاح دار السعادة،والذي كان مقصودَه تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آياته،وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكّر في آيات الله وعجائب صنعه،والانتقال منها إلى تعلّق القلب،والهمّة به دون شيء من مخلوقاته.[2]

ولما كان هذا العهد الكريم والصّراط المستقيم والنّبأ العظيم لا يوصل إليه أبدا إلاّ من باب العلم والإرادة،فالإرادة باب الوصول إليه،والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه.[3]

فحق على من كان في سعادة نفسه ساعيا،وكان قلبه حيّا على الله تعالى واعيا،أن يجعل"العلم والارادة"مدار أقواله وأعماله،وأن يصيِّرها آخيّته(*) التي إليها مفزعه في حياته ومآله فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسِّسا على هاتين القاعدتين،ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين[4].إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.[5]

إذن"العلم والإرادة"هما الأصلين لهذه الدّار في كتاب(مفتاح دار السعادة)،وهما أساس أي عمل يلجأ إليه باحث العلم ساعيا إلى ما يجب الوصول إليه وتحقيق الهدف المراد تحقيقه.

---

[1] معجم الوسيط ،(مادة سعد)، ج3،ص430

[2] مفتاح دار السعادة لابن القيم:16/1

[3] المصدر نفسه:17/1

*- هي مثل عروة تشدّ إليها الدّابة

[4] مفتاح دار السعادة:19/1

[5] المصدر نفسه:68/2

## المبحث الثاني: موضوعه

فما ينبغي أن نقوله في هذا المبحث،أنّ"ابن القيم"قد جعل التفكر والتدبّر تنبيها للقلب،والبعد عن الغفلة،فبهما يستطيع الانسان أن يرقى ويعلو إلى أسمى الدّرجات،قال ابن القيم:"التفكر والتذكر أصل الهدى والصلاح وهما قطبا السعادة،ولهذا وسّعنا الكلام في الفكر في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدّة الحاجة إليه،قال الحسن:ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكّر على التذكّر،ويناطقون القلوب حتى نطقت،فإذا لها أسماع وأبصار."[1]

"فاعلم أنّ التفكر طلب القلب ماليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها،هذا حقيقته فإنّه لولم يكن ثمّ موّاد تكون موردا للفكر استحال الفكر،لأنّ الفكر بغير متعلّق متفكِّر فيه محال،وتلك المواد هي الأمور الحاصلة،ولوكان المطلوب بها حاصل عنده لم يتفكّر فيه."[2]

"فإذا عرف هذا،فالمتفكّر ينتقل من المقامات والمبادىء التي عنده إلى المطلوب الذي يريده،فإذا ظفر به وتحصّل له تذكّر به وأبصر مواقع الفعل والترك،وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه،فالتذكّر هو مقصود التفكّر وثمرته،فإذا تذكر عاد بتذكّر على تفكّره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده،فهو لايزال يكرر بتفكّره على تذكّره وبتذكّره على تفكّره مادام عاقلا،لأنّ العلم والإرادة لايقفان على حدّ،بل هو دائما سائر بين العلم والإرادة."[3]

"وإذا عرفت معنى كون آيات الرّب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصّر بها من عمى القلب،ويتذكّر بها من غفلته،فإنّ المضاد للعلم إمّا عمى القلب وزواله بالتبصّر وإمّا غفلته وزواله بالتذكّر."[4]

[1] مفتاح دار السعادة:67/2

[2] المصدر نفسه:68/2

[3] مفتاح دار السعادة:68/2

[4] المصدر نفسه:68/2

"والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة إلى شيء من بعض آيات الله،ولو ذهبنا نتتبّع ذلك لنفذ الزمان،ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام،ولكن ما لايدرك جملة لا يترك جملة."[1]

"وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكّر في آيات الله وعجائب صنعه،والانتقال منها إلى تعلّق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته.فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين،إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدّار."[2]

ويظهر جليا من خلال هذه المقاطع إسهاب"ابن القيم"في حديثه عن فضل العلم والعلماء والمتصفّح لهذا الكتاب يلاحظ أنّه أكثر ما شغل صفحاته،فالتبصرة،والتعقّل،والذكرى:التذكر والفكر باب ذلك ومدخله.[3]

إمّا أن لا يكون له علم بها فلا يتحرّك في طلبها،أويكون عالما بها ولا تنهض همّته إليها،فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا،وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا،وقد أسام نفسه مع الأنعام راعيا مع الهمل،واستطاب لقيمات الراحة والبطالة،واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمر إليه،وبورك له في تفرّده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه،قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله،ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله.[4]

فهذا هو مضمون هذه التحفة المتزّنة،فإن مراتب السعادة والفلاح إنّما تفوت العبد من هاتين الجهتين،فبالتفكر والتبصر يطمح العبد إلى هذه السعادة والتمتع بها.

[1]مفتاح دار السعادة:68/2

[2] المصدر نفسه:68/2

[3] المصدر نفسه:17/1

[4]مفتاح دار السعادة:17/1

## المبحث الثالث: منهج المؤلف في كتابه

ولما بنى المؤلف كتابه على أصلين"العلم والإرادة"وما لازمهما من موضوع التفكر والتذكر أفاض كثيرا في الحديث عنهما فأداه ذلك إلى طرق موضوعات كثيرة على منهج يعتمد عليه في كتابته،فقال "ابن القيم"في كتابه بعد استطراده حول مسألة الحكمة:"...وهذا فصل معترض،وهو أنفع فصول الكتاب،ولولا الاطالة لوسَّعنا فيه المقال،وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصّواب،وهو المرجوّ لتمام نعمته ولاقوّة إلا بالله العلي العظيم."[1]

هذه هي طريقة"ابن القيم"في معالجة المسائل الدِّينية والفقهية فهو كثير الاستطراد والانتقال من موضوع إلى موضوع آخر،ومعنى كلامه هذا أنّ"ابن القيم"تطرّق إلى مواضع كثيرة في كتابه،ومن بينها"الحكمة"،والتي تعتبر من أهمِّ فصول الكتاب،ولولا الاطالة لوسَّعنا فيه المقال مع كثرة الشواهد والأمثلة،حتى لا يدع القارىء تائها بين المسائل الشائكة التي لا يعرف لها حلولا.

وقال أيضا بعد بيان منّة الله على خلقه:"فتدبّر هذا الفصل فإنّه من الكنوز في هذا الكتاب،وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر ولله الحمد والمنّة."[2]

ولذلك أفاض"ابن القيم"كثيرا في بيان منّة الله تعالى على خلقه،والمقصود أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده،ثم وضع في العقل من الاقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظلّه في أرضه وعدله بين عباده.[3]

وقال في خاتمة كتابه الأخير الجزء الثالث:"وليكن هذا آخر الكتاب،وقد جلبت إليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون،وجلّيت عليك فيه عرائس إلى مثلهنّ بادر الخاطبون:

---

[1] مفتاح دار السعادة:182/2

[2] المصدر نفسه:245/2

[3] المصدر نفسه:245/2

*فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله وشدّة الحاجة إليه وشرفه،وشرف أهله،وعظم موقعه في الدّارين.

*وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصّانع بطرق واضحات جليات تلج القلوب بغير استئذان ومعرفة حكمته في خلقه وأمره.

*وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة وشدّة الحاجة إليها،ومعرفة جلالتها وحكمتها.[1]

*وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوّة وشدّة الحاجة إليها،بل وضرورة الوجود إليها،وأنّه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلي العالم عنها.

*وإن شئت اقتبست معرفة الرّد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرّد من نفس صناعتهم وعلمهم،وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها،وإبداء تناقضهم في صناعتهم وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر.[2]

*وإن شئت اقتبست منه معرفة مافطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح،وإن ذلك أمر عقلي فطري بالأدّلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب ولا توجد في غيره.

*وإن شئت اقتبست منه معرفة الطّيرة و الفأل والزجر،والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر."[3]

ويظهر جليا من هذه الفقرات أنّ هذا الكتاب حافل بأصول نافعة جامعة،مما تكمل به النفس البشرية وتنال بها العبد سعادته في معاشه ومعاده.[4]

---

[1] مفتاح دار السعادة:388/3

[2] المصدر نفسه:388/3

[3] مفتاح دار السعادة:389/3

[4] المصدر نفسه:389/3

وهو كتاب نفيس فيه من بدائع الفوائد وفيه من البحوث ما يستقصي كل علم إلى فنّه،إذ فيه فوائد مرسلة يقتبس من مجموعها معرفة العلم وفضله،ومعرفة إثبات الصّانع،ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النّبوة...وشدّة الحاجة إلى هذه المذكورات ومعرفة أصول نافعة جامعة مما تكمل به النّفس البشرية.[1]

فإنّ هذا الكتاب يمثل لجنة علمية متكاملة،فيها المحدِّث والفقيه والمفسِّر والمتكلِّم والأصولي واللّغوي والفيلسوف والطّبيب...وما ذلك إلا لتنوّع فنونه وتعدّد معارفه واختلاف بحوثه.

## المبحث الرّابع:طريقته في الاستدلال والتّرجيح

لقد تميّز كتاب(مفتاح دار السعادة)لابن القيم بمنهج يمكّن القارىء من نهمه والتمعّن في موضوعاته،إذ لجأ إلى طرق ووسائل في أن يكون مؤلِّفه مميّزا وهي:

**أ–الاستدلال**:هذه أهمّ ميزة يتّسم بها منهج الامام"ابن القيم"،فقد غلبت على جميع أبحاثه،فقد كان لايعرض المسائل عارية عن الدلائل حتى لا يترك القارىء تائها في وسط المسائل الشائكة،والآراء المختلفة،وإنّما يثلج صدره ويقرّ عينه،بما يسوق إليه من الأدِّلة الباهرة والحجج الظاهرة والنصوص القاهرة،ويجعله يقبل الحكم الشرعي عن علم ودراية.[2]

*– *ترتيب الأدِّلة:* فكان أوّلا يعتمد على نصوص الكتاب والسنّة ويبرِّر أدلّتها،وكان يتحرّى ماصحّ من الأحاديث.[3]

---

[1] مفتاح دار السعادة :389/3

[2] القواعد الفقهيه المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص90

[3] المصدر نفسه:ص91

*-*حشد الأدّلة:* كان رحمه الله إذا بحث مسألة أو ناقش رأيا جرّ مجموعة من الحجج،وأتى من الكتاب والسنة والآثار بما خضعت له الرّقاب،وذلّت له الصّعاب وكشف له النّقاب وقد ساعده على ذلك حافظته العجيبة وذاكرته المفرطة التي كانت تفيض بنصوص الكتاب و السنّة.[1]

**ب- الاستشهاد بالشعر**:وهذه الخصيصة بادية على صفحات كتاب(مفتاح دار السعادة)فلا تكاد تقف على موضع إلا تجد شعرا رائقا،ونظما فائقا،مما يدلّ على ذاكرته العجيبة،في استحضاره من الشعر ما يلاءم الموضوع الذي يخوض فيه.[2]

**ج- حسن الترتيب والسِّياق:** تميّزت أبحاثه بحسن الترتيب وجودة التبويب واتّساق الأفكار وإحكام العبارة، وحسن السِّياق وكأنّها لؤلؤ منثور قد جمع في قلادة.[3]

**د- أسلوب الحوار**:استخدم أسلوب الحوار في غالب مناقشته لخصومه حتى يعطي حيوية أكثر للموضوع ويجعل القارىء يتابعه باهتمام وتركيز،ويشعر وكأنّه حضر مجلس مناضرة،وقد تقابل الخصمان فأدلى كل منهما بحجّته.[4]

**ه- استشهاده بأقوال الأئمة**:لما كان الامام يصبو إلى تحقيق أهدافه المتمثلة في الدّعوة إلى التّمسك بالكتاب والسنة،وما كان عليه سلف الأمّة والتحرّر من قيود التقليد الأعمى،ونراه إذا بحث مسألة يدعِّم رأيه بالإكثار من الاستشهاد بأقوال الصّحابة والتابعين والإفاضة في النقل عن الأئمة المجتهدين ليبرز منهج السلف في المسألة ويظهر رأيهم في القضية.[5]

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص93

[2] المصدر نفسه:ص115

[3] المصدر نفسه:ص116

[4] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص117

[5] المصدر نفسه:ص120-121

و- **عنايته بالجانب الرّوحي**:إنّنا نستشف هذه الخصيصة من خلال أبحاثه التي مزجها بأعمال القلوب وأحوالها:كمحبَّة الله تعالى وخشيته ورجاء رحمته والافتقار إليه والتضرّع إليه.[1]

وهكذا استطاع"ابن القيم"أن يحصي لنا عدّة وسائل وطرق التي لجأ إليها في كتابه،وهذا مايدل على أنّه من فحول الأدباء.

## المبحث الخامس:حول تقسيم الكتاب

رغم تنوّع الفصول واختلاف المواضيع،فأبى"ابن القيم"إلاّ أن يقوم بتقسيم الكتاب حتى يسهّل على القارىء مدى التطلّع عليه ودراسته بشكل يسير،إذ نجد أنّه"ذكر غير واحد من المعنيين بهذا الكتاب،دراسة وتحقيقا واختصارا أنّ كتاب(المفتاح)قسمان:وهذا كلام صحيح جدّا[2]،إن لم نقل هو الأصح وهو ما صرّح به مصنّفه رحمه الله في مواطن كثيرة فقال:"وقد ذكرنا فصلا مختصرا في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى،وأردنا أن نختم به القسم الأوّل من الكتاب،ثمّ رأينا أن نتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله..."[3]

وقال بعد أن ذكر وجوب ابتهال العبد لربّه وتضرّعه على بابه:"وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقرّ به عينك إن شاء الله."[4]

فماهي حقيقة تقسيم الكتاب؟وماهو مقداره الأساس؟

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص124

[2] مفتاح دار السعادة:25/1

[3] المصدر نفسه:309/2-310

[4] المصدر نفسه:265/2

قال فضيلة الشيخ الامام"بكر بن عبد الله أبو زيد"في كتابه(ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده): "والكتاب يتكوّن من قسمين في مجلّد،وقد أبرز في طبعته الأولى كذلك،أمّا في طبعة الأستاذ"محمود حسن الرّبيع"،فبدون تجزئة،وتجزئة الكتاب إلى قسمين هو الذّي يوافق صنيع المؤلّف رحمه الله تعالى، فإنّه قد أشار في مواضع منه إلى أنّ كتابه هذا يتكوّن من قسمين."[1]

وقد وفى "ابن القيم"بذلك فتكون صورة الكتاب على ما يأتي:

**أوّلا:** مقدّمة حافلة أقامها على حكمة الله تعالى في قصّة آدام عليه السلام،فقد تحدّث المؤلّف فيه بإسهاب عن موضوعين رئيسيين هما كيف أزّل الشيطان-عليه لعنة الله- آدام وحواء،وكيف أهبطهما الله تعالى إلى الأرض،ثمّ إستطرد فيها بتحرير الخلاف حول الجنّة التي أهبط منها، ثمّ بيّن طريقته في كتابه،وأنّه بناه على الأصلين.[2]

**ثانيا:** الأصل الأوّل من موضوع الكتاب في"العلم"،حيث تحدّث"ابن القيم"عن فضل العلم والعلماء،وهما أكثر ما شغل صفحات الكتاب،وفصّل في مبحث التفكّر والتذكّر بذكر حكمة التشريع وحكمته عزّ وجلّ في مخلوقاته،وهذا معظم الكتاب.[3]

**ثالثا:** الأصل الثاني في"الارادة"،وتضمّن ذلك البحث موضوع الحسن والقبح العقليين إلى آخر الكتاب(من الجزء 419/2إلى الجزء 390/3) مع ما"لابن القيم"خلال ذلك من استطرادات.[4]

وهناك مواضيع أخرى،ولقد خصّص"ابن القيم"في هذا الكتاب للوعظ والتذكير مجالا رحبا،وبالجملة قد أبدع المؤلّف في إخراجه إلى فضاء الاطلاع والعلم فرحمة الله تعالى عليه.

[1] ابن قيم الجوزية حياته وآثاره وموارده،لبكر بن عبد الله أبو زيد:ص301

[2] مفتاح دار السعادة:26/1

[3] المصدر نفسه:26/1

[4] المصدر نفسه:26/1

## المبحث السادس: القيمة العلمية للكتاب وأهمِّيته

على الرّغم من كثرة الكلام من أهل العلم حول هذا الكتاب فلم نجد منهم إلاّ الثناء العطر،والذكر الطيِّب،وتعظيم المؤلّف،وتبجيل مباحثه ومعارفه المطروقة في كتابه،"لأنّ الامام ابن القيم معروف عند القاصي والدّاني بجودة البحث،وقوّة الاستدلال ومتانة العبارة وجزالة اللّفظ وضبط المعاني،وسلاسة الإنشاء."[1]

كتاب(مفتاح دار السعادة)الّذي بين أيدينا ذوقيمة علمية نفيسة،وتتجلّى هذه القيمة فيما يلي:

*لقد بحث الامام"ابن القيم"في بعض المسائل الفقهية الشائكة،فذكر أقوال الأئمة وآراء المذاهب،وكشف عن القول الرّاجح فيها،ممّا يسهِّل على طلبة العلم عموما وأهل العلم خصوصا الوقوف على مآخذ الأقوال والصّواب منها.[2]

* أفاض-رحمه الله-في بحث بعض المسائل الأصولية المهمة كمسالة الايمان وقاعدته والتفكّر في خلق الله،والمسائل العلمية كالنّطفة وأحوالها،والنّجوم وكثرتها وعجبها...وناقش آراء الأصوليين فيها،ممّا يجعل كتاب(مفتاح دار السعادة)مرجعا أساسيا في علم أصول الفقه.

* احتُفل الكتاب بالفوائد الأصولية والقواعد الفقهية،مع تحرير مسائلها وتخريج فروعها من مختلف أبواب الفقه.[3]

* ساهم الامام بقسط وافر في تأسيس بعض القواعد الفقهية والضوابط الفرعية تأصيلها،فتضاف إلى صرح القواعد الشامخ في الفقه الاسلامي.[4]

---

[1] مفتاح دار السعادة:28/1

[2] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص148

[3] المصدر نفسه:ص148

[4] المصدر نفسه:ص148

لقد ساهم "ابن القيم"بحظ وافر في تأليف هذا الكتاب ورمى بالعلم إلى أبعد نقطة يمكن أن تصل إلى أي إنسان يسعى في تحصيل العلم،فهذا ما جعل كتابه يحتوي على هذه القيمة العلمية والفائدة الجمّة من معلومات ذات أهميّة كبرى.

## المبحث السابع: المآخذ على الكتاب

يعترف العديد من العلماء على المجهودات المبذولة من قبل هذا العالم الجليل الذي وضع بصمته في عالم العلم والمعرفة،إذ يعدّ كتابه(مفتاح دار السعادة)من أضخم الكتب التي تضمّنت فصولا وأبوابا يلجأ إليها القاصي والدّاني لينهل منه.إلا أنّه كتاب غير مرتب باعتراف كثير من العلماء ،"وهذا كلّه لا يمنع من توجيه نقد أوبيان خطأ،أوكشف وهم،فكما يقال:"أبى الله أن يتم إلا كتابه."[1]

وهذه المقولة تصدِّق على كل كتاب ومنها (مفتاح دار السعادة)لأنّ مؤلّفه بشر وهو عرضة للخطأ،والكمال لله تعالى وحده، فالأمر كما قيل:"كفى بالمرء نبلا أن تعدّ معايبه."[2]

فإنّ أهمّ ما وُجّه لمؤلِّفنا من نقد إنّما يتعلّق بترتيب الكتاب،فقال ابن القيم:"ونحن نذكر هنا فصولا منثورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمّنت بعض التكرار،وإن كانت غير مرتّبة فلا ضير بالتكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهمِّ فصول الكتاب،بل هو لبّ هذا القسم."[3]

وهكذا يقرّ"ابن القيم"بنفسه أنّ فصول هذا الكتاب منثورة وغير مرتّبة كما يتخلّلها التكرار،وترك الترتيب ويقول أيضا:"فلا تستطل هذا الفصل،وما فيه من نوع التكرار يشتمل على مزيد فائدة،فإنّ الحاجة إليها ماسة والمنفعة عظيمة."[4]

---

[1] القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين:ص148

[2] المصدر نفسه:ص150

[3] مفتاح دار السعادة:44/2

[4] المصدر نفسه:200/2

وهذه ملاحظة أخرى وهي التكرار،وهي بارزة في مواضيع كثيرة من(مفتاح دار السعادة)،وهكذا نرى"ابن القيم"يعترف بوجودها معلّلا أن التكرار يشتمل على مزيد من الفائدة ومنفعة عظيمة.

وممّا يضاف إلى هذا الكتاب من نقد،استعمال"ابن القيم"مصطلحات فلسفية وكلامية غامضة، دون بيانها وشرحها ممّا يعسّر على القارىء فهمها واستيعابها وخاصّة في هذه العصور المتأخّرة...وأمثلة على ذلك يقول"ابن القيم"في فصل (الأرض وخلقتها):"...ثمّ إنّه سبحانه وتعالى،أعطى هذا المخلوق اللّطيف الذي يحرِّكه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدّة والقوّة والبأس،ما تقلق به الأجسام الصّلبة القويّة الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه،فانظر إليه مع لطافته وخفّته،إذا دخل في الزّق مثلا وامتلأ به..."[1]

استعمل"ابن القيم"كلمة "الزّق"(*) دون بيانها أوشرحها ممّا يعسّر على القارىء فهمها .

وفي موضع آخر يقول"ابن القيم"في فصل(الحيوانات وأصنافها):"ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف أصنافه وأجناسه...ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرّخم والغراب..."[2]

استعمل"ابن القيم"كلمة"الرّخم"(*)دون بيانها أوشرحها،وهي كلمة غريبة لا يفهمها القارىء...إلى غير ذلك من الأمثلة.

فهذه بعض الملاحظات،وهي لا تحط من قيمة الكتاب،ولا تكدر من صفوه،بل إنّها مغمورة في بحر محاسنه ومميِّزاته وهذا كلّه لا ينقص من القيمة العلمية العالية التي تبوّأها هذا الكتاب الفرد في بابه ونهجه وأسلوبه.

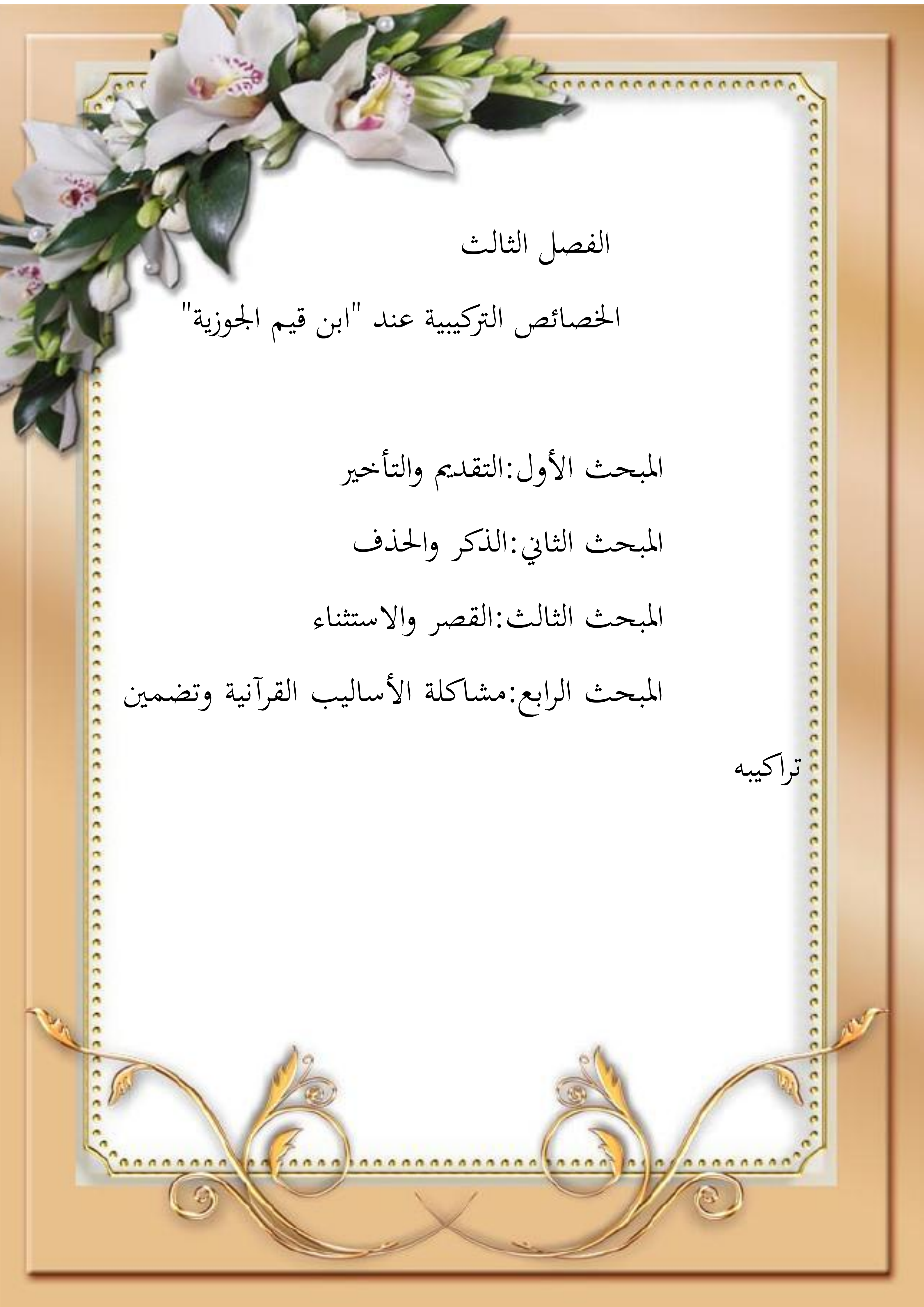
---

[1] مفتاح دار السعادة:34/2

*– هو وعاء من جلد يتّخذ للماء والشراب

[2]مفتاح دار السعادة:44/2

*–طائر غزير الرِّيش،أبيض اللّون،مبقّع بسواد،وله منقار طويل



# الفصل الثالث

## الخصائص التركيبية عند "ابن قيم الجوزية"

المبحث الأول:التقديم والتأخير

المبحث الثاني:الذكر والحذف

المبحث الثالث:القصر والاستثناء

المبحث الرابع:مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه

نعني بدراسة التراكيب في هذا الفصل إحصاء مجموعة من الظواهر الّتي يتميّز بها بناء الجمل في (مفتاح دار السعادة)من حيث التقديم والتأخير،الذكر والحذف،الاستثناء والقصر...وغيرها من الظواهر التي تتصل بالبناء الداخلي للجمل من جهة وتتصل من جهة أخرى الكشف عن علاقات بناء التراكيب بين نصوص"ابن القيم"،"فالباحث في كتب القدامى لا يجد بابا اسمه الجملة،بل سيصطدم بمصطلحات مرادفة لها:الكلام مثلا،أو يجد أبوابا تتحدّث عن أجزائها منفصلة كباب الفعل،وباب المنصوبات والمضاف إليه...ولا نكاد نجد في هذه الكتب تعريفا للجملة بقدر ما اهتم هؤلاء النحاة بتحليل أجزائها، وسرد أقسامها وأنواعها...وإنّهم لم يبيّنوا العلاقة بين الكلام والجملة...،ومثلما اختلف العلماء في تعريف الجملة، اختلفوا في تقسيماتها ..."[1]

أمّا النظام النّحوي فهو"جوهر دراسة علوم العربية وأصل من أصول تفكير علماء العرب، وهو يشكّل وشيجة متينة تربط عناصر النظام اللغوي بعضها مع بعض، وتمثل الضوابط والأحكام التي ينبني عليها الكلام، وتتضح بها المعاني."[2]

إذن النظام النحوي هو لبّ الدّراسات اللغوية، على اعتبار أنّه قلب الأنظمة اللغوية جميعها وواسطة العقد بينها، فهو الذي يصل بين الأصوات و المعاني.

## المبحث الأوّل: التقديم والتأخير

لكل لغة من لغات البشر نسق معيّن في ترتيب الكلام،يلتزم به المتكلّم في كلامه ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرّج الذهني،فمن المعروف في اللغة العربية أن يأتي المبتدأ وبعده الخبر،والفعل بعده الفاعل،وأن يتأخر المفعول به عن الفاعل،وهذا النسق المنظم يعتمد على المنطق السليم وحسن الادراك،ولكن في بعض الأحيان يختّل الترتيب الطبيعي،ويحدث في الجملة الفعلية والاسمية بما يسمى"التقديم والتأخير"،إذ يقول"عبد القاهر الجرجاني"عن هذه الظاهرة اللغوية:"هو باب كثير

[1] علم الصّرف منهج في التعليم الذاتي،فارس محمد عيسى،دار الفكر للنشر والتوزيع،ط1،عمان،2000م،ص32-33

[2] المرجع نفسه:ص33

الفوائد،جمّ المحاسن،واسع التصرف،بعيد الغاية،لايزال يفترّ لك عن بديعة،ويفضي بك إلى لطيفة،ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه،ويلطف لديك موقعه،ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك،أن أقدّم فيه شيء،وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان."[1]

ومثال ذلك قولك:"منطلق زَيْدُ"،و"ضَرَبَ عُمَرًا زيدُ"معلوم أن (منطلق)و(عمرا) لم يخرجا بالتقديم عمّا كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك،وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله،كما يكون إذ أخّرت.وتقديم لا على نية التأخير،... ،ومثاله ما تصنعه"بزيد"و"المنطلق"حيث تقول مرّة:"زَيْدُ المنطَلِقُ"وأخرى"المنْطَلق زَيْدُ"،فأنت في هذا لم تقدِّم"المنطلق"على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير فيكون خبر المبتدأ كما كان،بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ،وكذلك لم تؤخر "زيدا"مع أن يكون مبتدأ كما كان،بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا.[2]

إذن يرتبط تعبير نسق الكلام تقديما وتأخيرا،بتغيير إدراكنا للأمور وبما يكون في أنفسنا من رغبات وتبيين قدرة أصحاب البلاغة و البيان حين يستخدمون هذه الغاية المعنوية "للتقديم والتأخير"في تحقيق هدف آخر،وهو روعة موسيقى العبارة،واكتمال جمالها الفني ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا،وقد أفرد أهل اللغة والنحو منذ القديم أبوبا خاصّة "للتقديم والتأخير"في كتب النحو والبلاغة،فقد بيّن "سبويه"العلة في"التقديم والتأخير"بقوله:"كأنّهم يقدِّمون الذي بيانه أهمّ لهم،وهم ببيانه أعنى،وإن كانا جميعا يَهُمَّانِهم ويُعْنيَانهم."[3]

---

[1] دلائل الإعجاز ،لأبي بكر عبد القادر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي،قرأه وعلّق عليه:أبو فهر محمود محمد شاكر، (دط)،(دم)،(دت)، ص106

[2] المصدر نفسه:ص106-107.

[3] الكتاب،لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سبويه،تح وشرح:عبد السلام محمدهارون ،ج1،مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1408هـ/1988م،ص34

ومثال ذلك قولك:"ضَرَبَ عَبدُ الله زَيدًا"،فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب،وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب،وانتصب زيد لأنه مفعول تعدّى إليه فعل الفاعل،فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول،وذلك قولك:ضَرَبَ زيدًا عبد الله،لأنّه إنما أردت به مؤخّرا ما أردت به مقدّما،ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّل منه وإن كان مؤخرا في اللفظ،فمن ثمّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّما.[1]

وهكذا يعدّ"التقديم والتأخير"واد من أودية البلاغة،وكنز من كنوز البيان،ولقد وضّح الامام"عبد القاهر الجرجاني"أيضا علّة التقديم و التأخير بقوله:"لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النّفس...والفائدة في معرفة هذا الفرق ،أنّك إذا عرفته عرفت أنّ ليس الغرض بنظم الكلم،أن توالت ألفاظها في النطق،بل أن تناسقت دلالتها،وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل..."[2]

ومثال ذلك قوله تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ..﴾[3] فإنّ هذا مع إفادته أنّ نظرها لا يكون إلاّ إلى الله تعالى يفيد في جودة انتظام الكلام.[4]

فترتيب الألفاظ حسب"عبد القاهر الجرجاني"تأتي حسب ترتيب المعاني في النفس،وليس الغرض بنظم الكلم،أن توالت ألفاظها في النطق،بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل،والقارىء(لمفتاح دار السعادة)سيجد عناية كبيرة بهذه المسألة،مسألة"التقديم والتأخير"والتي تدور حول المحاور التالية:

---

[1] الكتاب:34/1.

[2] دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني،ص49-50

[3] سورة القيامة:22

[4] الفوائد المشوّقة إلى علوم القرآن،لإبن قيم الجوزية،ج1،إشراف:لجنة تحقيق التراث،مكتبة الهلال،(دط)،بيروت،(دت)،ص124

– تقديم الخبر على المبتدأ:في مثل قوله تعالى:﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ..﴾[1] ولو قال:وظنوا أنّ حصونهم من الله مانعتهم لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إيَّاهم.[2]

– تقديم المفعول على فاعله:مثل قوله تعالى:﴿بَلِ اللهُ فَاعْبُد وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ..﴾[3] فإنّ المراد هاهنا بتقديم المفعول لتخصيصه بالعبادة ولو أخّره ما أفاد ذلك فإنّه لو قيل:"ضربت زيدًا" لم يشعر ذلك باختصاص زيد بالضرب،ولا كذلك لوقيل:زيدًا ضربت.[4]

– تقديم الظرف على الفعل:مثل قوله تعالى:﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ..﴾[5] وتقديم الجار و المجرور كقوله تعالى:﴿لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ..﴾[6] فإنّ هذا يفيد الاختصاص ذلك بالله تعالى،وأمّا إذا كان الظرف في النفي فإنّ تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه كما في قوله تعالى:﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَهُم عَنْهَا يُنْزَفُونَ..﴾[7] أي:ليس في خمر الجنة ما في خمر غيرها من الغول،وأمّا تأخيره فإنّما يفيد النفي فقط فقط كما في قوله تعالى:﴿أَلم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ..﴾[8] وكذلك إذا قلت لا عيب في الدّار كان كان معناه نفي العيب عن الدار وإذا قلت لا في الدار عيب كان معناه إنّها تفضل على غيرها بعدم العيب.[9]

---

[1] سورة الحشر:02

[2] الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن،لإبن قيم الجوزية،124/1

[3] سورة الزمر:64

[4] الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن:124/1

[5] سورة الغاشية :26

[6] سورة التغابن:01

[7] سورة الصافات:47

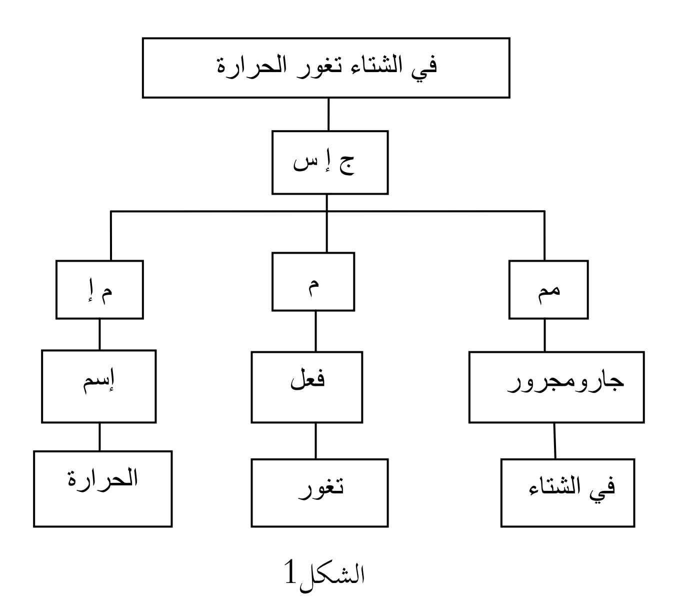
[8] سورة البقرة:60

[9] الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن:125/1

ولبيان أهمية"التقديم والتأخير"نقوم بتحليل بعض الأمثلة الواردة في(مفتاح دار السعادة) يقول "ابن القيم"في فصل(الشمس وأحوالها):"في الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض."[1]

يمثل هذا التركيب بناءا إسناديا لأنّه يتضمّن عناصر الإسناد التي ينبغي أن تتوفر في التراكيب الأساسية للغة العربية،ممثلة في الجملة الفعلية والجملة الاسمية،وعناصر الإسناد هي المسند(م) والمسند إليه(م إ)والمتمم (مم)،ويبقى تقديم"المسند"و"المسند إليه"أحدهما على الآخر راجع إلى نمط الجملة فعلية أوإسمية.

ويمكن تحديد نمط هذه الجملة(اسمية أو فعلية)وتحديد رتبة المكونات الأساسية للمثال بهذا المشجر البياني المعتمد لدى المدرسة التحويلية التوليدية التي يتزعّمها "نعوم تشومسكي"(*)




الشكل1

[1] مفتاح دار السعادة:52/2

*- أفرام نعوم تشومسكي(Avram Noam chamsky)ولد 1928/12/07 فيلادلفيا بنسلفانيا،هو أستاذ جامعي في اللّغويات في معهد ماساتشوستش للتكنولوجيا،هوصاحب نظرية النحو التوليدي،والتي كثيرا ما تعتبر أهمّ إسهام في مجال اللغويات النظرية في القرن العشرين،والذي تحدّى المقاربة السلوكية لدراسة العقل واللغة التي كانت سائدة في الخمسينيات،مقاربته الطبيعية لدراسة اللغة أثرت كذلك على فلسفة اللغة والعقل.

فيمكن أن نسجّل ملاحظة وهي:في الأصل أنّها جملة فعلية،وذلك لتقدّم المتمم على رتبته،فقد ورد في صدر الكلام،والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام،وهي تأتي على هذا الشكل:

الجملة الفعلية: م + م إ + مم

تغور+الحرار + في الشتاء

ويدخل"المتمم"التركيب العربي كركن إضافي يسهم في تحديد معنى الكلام ويأتي بعد الفعل وفاعله،وفي ذلك يقول"سبويه":"...إلاّ أنّك إذا أردت الالغاء،فكلما أخرّت الذي تلغيه كان أحسن،وإذا أردت أن يكون مستقرّا تكتفي به،فكلّما قدّمته كان أحسن..."[1]

ومعنى هذا: أنّ التركيب في الجملة العربية عناصر يمكننا أن نلغيها وكلّما أخّرنا الذي نلغيه كان أحسن،وإذا أردنا عكس ذلك تكتفي به،فكلّما قدّمناه كان أحسن.

ويضيف فيقول:"والتقديم هاهنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب"الفاعل والمفعول"،وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيّد كثير،فمن ذلك قوله تعالى:﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُؤًا أَحَد..﴾[2] "[3]

فليس الجار والمجرور فيه تامّا إنّما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبرا لكان بل هو متعلق بكفؤا وقدّم عليه،فالتقديم:ولم يكن أحد كفؤا له،أي:مكافئا له فهو في معنى المفعول متعلق بكفؤا،وتقدّم على(كفؤا)للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى توسط الخبر وإن كان الأصل التأخر لأنّ تأخر

[1] الكتاب لسبويه:56/1

[2] سورة الإخلاص:04

[3] الكتاب:56/1

الاسم هو فاصلة فحسن ذلك.وقال سبويه:.. إذا أردت أن يكون مستقرّا فكلما قدمته كان أحسن والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد،ومعنى قوله:مستقرا أي خبر للمبتدأ.[1]

فالتقديم والتأخير يشمل أيضا الظروف والأسماء،وهي عربي جيِّد،وقد حدّد"عبد القاهر الجرجاني"التقديم على وجهين:"تقديم يقال إنّه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدّمته على المبتدأ،والمفعول إذا قدّمته على الفاعل كقولك:"منطلق زيد"و"ضرب عمرًا زيدُ"معلوم أنّ(منطلق)و(عمرا) لم يخرجا بالتقديم عمّا كانا عليه،من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك...وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم،وتجعل له بابا غير بابه،إعرابا غير إعرابه،بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ."[2]

ومن هنا يتبين أنّ تقديم الشيء على الشيء ضربان:تقديم على نية التأخير،وذلك في شيء أُقِّر مع التقديم على حكمه الذي كان عليه،كتقديم الخبر على المبتدأ أو المفعول على الفاعل،وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن ينقل الشيء عن حكم إلى حكم،ويجعل له إعرابا غير إعرابه،كما في اسمين يحتمل كل منهما أن يجعل مبتدأ والآخر خبرا له،فيقدِّم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا،فما علّة التقديم في المثال الذي أوردناه؟

لعل المعنى المتضمن في هذه العبارة هو تأكيد"ابن القيم"على شدّة الحرارة في الأجواف وبطون الأرض في فصل الشتاء،وهنا تناقض إذ أنّ في فصل الشتاء يُعرف بأنه شديد البرودة وفيه تقلّ الحرارة وإن كان الأمر كذلك فكيف"تغور الحرارة في فصل الشتاء؟"فيلاحظ أنّ التقديم في عبارة"ابن القيم" هو تقديم على نية التأخير.

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل،للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري،ج6،تح وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود /علي محمد معوّض،مكتبة العبيكان،ط1،الرياض،1418هـ/1998م،ص462

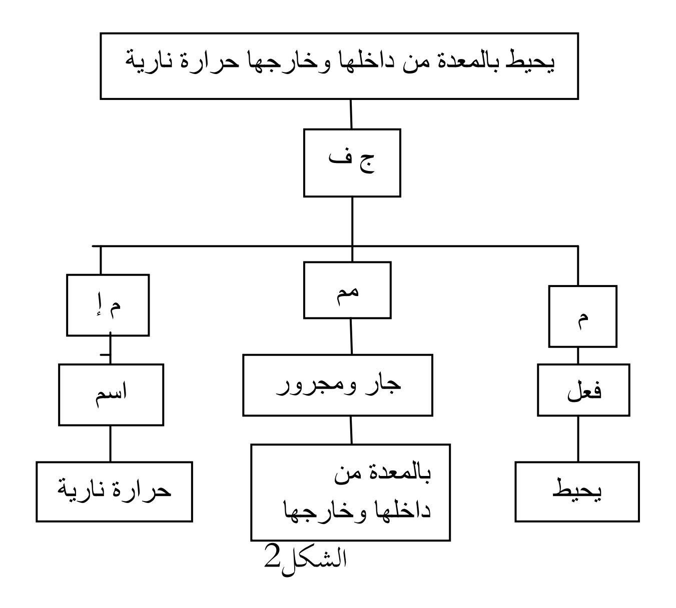
[2] دلائل الإعجاز ،لعبد القاهر الجرجاني،ص106

وشبيه هذا المثال في قول"ابن القيم":"وفي الصّيف يحتدّ الهواء،ويسخن جدّا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان."[1]

والذي تضمن أيضا عناصر الاسناد التي ينبغي أن تتوفر في التراكيب الأساسية للغة العربية ممثلة في الجملة الفعلية والاسمية وتحديد مكوّناته مثلما جاء في الشكل الأول (ينظر إلى المثال السابق).

ويقول"ابن القيم"أيضا:"ويحيط بالمعدّة من داخلها ومن خارجها حرارة نارية،بل ربّما تزيد على حرارة النار."[2]

يمثل هذا التركيب عناصر الاسناد المعروفة من مسند ومسند إليه ومتمم وسنقوم بتحديد نمط هذه الجملة (اسمية أوفعلية)ويمكن أن نسجّل ملاحظة أخرى،وهي تقدّم المتمم(مم) على رتبته فقد ورد في وسط الكلام،والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام كما هو مبيّن في هذا الشكل:



الشكل2

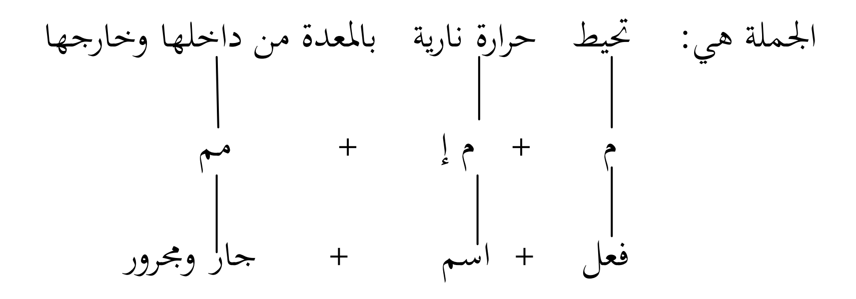
يلاحظ في هذا المثال تقديم المتمم(مم)عن الفاعل(م إ)والمفروض أن يرد في آخر الكلام،وعليه يكون الترتيب كالآتي:

---

[1] مفتاح دار السعادة:52/2

[2] المصدر نفسه:21/2






وكتاب(مفتاح دار السعادة)فيه من الأمثلة الكثيرة عن ظاهرة "التقديم والتأخير"وفي ذلك يقول"ابن القيم":"من آياته الباهرة هذا الهواء اللّطيف."[1]

وما يلاحظ على هذا المثال تقديم الخبر(م إ)وهو(من آياته الباهرة) عن المبتدأ(م)وهو(هذا الهواء اللّطيف)والمفروض أن ترد الجملة كما يلي: هذا الهواء اللطيف من آياته الباهرة.

ويقول أيضا:"والأقوال إذا تعارضت وتعذّر الترجيح،كان دليلا على فسادها وبطلانها."[2]

يلاحظ أيضا في هذا المثال تقديم الفاعل(م إ)وهو(الأقوال)عن الفعل(م)وهو(تعارضت)،ومن سنن ترتيب الجملة الفعلية في اللغة العربية أن ترد الجملة وفق هذا الترتيب: فعل + فاعل + م به وعليه يجب أن تكون الجملة كالآتي:"وإذا تعارضت الأقوال..."

ويظهر جليا أنّ"ابن القيم"يميل كثيرا في لغته إلى التقديم والتأخير،وتتبين قدرته في البلاغة والبيان حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر وهو روعة موسيقى العبارة،واكتمال جمالها الفني،ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

## المبحث الثاني : الذكر والحذف

إنّ الذكر والحذف ظاهرة لغوية وثنائية تركيبية تخصّ بظواهر النّقص والزيادة في أي عبارة،وقد جعل منهما القدماء طرفين في الجملة،ويعرّف الامام"عبد القاهر الجرجاني"الذكر والحذف بقوله:

[1] مفتاح دار السعادة:33/2

[2] المصدر نفسه:49/3

"هوباب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر،شبيه بالسحر،فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،والصّمت عن الإفادة،أزيد للإفادة،وتجد أنطق ما تكون إذا لم تنطق،وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبن." [1]

وهكذا يتبيّن أنّ الذكر والحذف من الأبواب الطّريفة في اللغة العربية الذي أتحف أساليبها وإكسابها بلاغة وبيانا،وعلى قدر معرفة الكاتب والشاعر للأماكن التي يحسن فيها الذكر أو الحذف،تبيِّن مكانته في الفصاحة وامتلاك ناصية البيان.

*الحذف: وهو لغة الإسقاط :ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه،واصطلاحا إسقاط جزء الكلام أوكلّه لدليل،وأمّا قول النحويين:الحذف لغير دليل،وسمي اقتصارا،فلا تحرير فيه،لأنّه لاحذف فيه بالكلية كما يكون في الاضمار والايجاز.[2]

والفرق بينهما أنّ شرط الحذف والايجاز أن يكون(في الحذف)ثمّ مقدّر نحو:﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ..﴾[3] بخلاف الايجاز فإنّه عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجمّة بنفسه،والفرق بينه وبين الاضمار أن شرط المضمر بقاء أثر المقدّر في اللفظ مثل قوله تعالى:﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا..﴾[4] وقوله أيضا:﴿انْتَهُوا خَيْرًالَكُم..﴾[5] أي:أئتوا أمرا خيرا لكم،وهذا لا يشترط في الحذف ويدلّ على أنّه لابّد في الاضمار من ملاحظة المقدّر باب الاشتقاق،فإنّه من أضمرت الشيء: أخفيته.[6]

---

[1] دلائل الإعجاز :ص146

[2] البرهان في علوم القرآن،للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي،ج3،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الجيل،(دط)، بيروت 1408هـ/1988م، ص104

[3] سورة يوسف:82

[4] سورة الانسان:31

[5] سورة النساء:171،وينظر إلى (الكشاف)للزمخشري:46/1

[6] البرهان في علوم القرآن،للزركشي،104/3

وهو أيضا من حذفت الشيء قطعته،وهو يشعر بالطرح،بخلاف الاضمار ولهذا قالوا:(أن)تنصب ظاهرة ومضمرة،ورد عن قول النحاة:إنّ الفاعل يحذف في باب المصدر،وقال:الصواب أن يقال:يضمر ولا يحذف لأنّه عمدة في الكلام.[1]

والحذف نسق من أنساق الأداء يكون العدول عنه فسادا،كما جاء في قوله تعالى:﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَة،وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَة..﴾[2] فالآية﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾لاتتركون سدى؟قلت:له قصر الأمر على النفي دون الاثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنّه لم يقصر،والآية﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أي في يوم القيامة على تقصيرهنّ في التقوى...وقيل:هي نفس آدم،لهذا قرىء"لأقسم"في الآية﴿فَلاَ أُقْسِمُ بمَوَاقِعِ النُّجُومِ..﴾[3] على أن اللام الابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه:لأنا أقسم ،قالوا:ويعضده أنّه في الامام بغير ألف.[4]

ومن الملاحظ أنّنا لا نجد جوابا للقسم الذي ابتدأت به السورة –القيامة–وإنّما نجد ما يدلّ عليها وهو هذه الآية ﴿أَيَحْسِبُ الِانْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ..﴾[5] فجواب القسم محذوف ويقدّره النحاة(لتبعثنّ) وهذا الحذف يتناسب هو والعجلة التي دلّت عليه النفس اللوامة وجوّها أي:جوّ العجلة التي طبعت به السورة.[6]

وقد تناوله القدماء –الحذف–ومن بينهم"ابن الجني"،وبيّنوا أماكنه في اللغة الفنية،إذ إنّه يعتري"الجملة والمفردة والحرف والحركة"[7] .

---

[1] البرهان في علوم القرآن:104/3

[2] سورة القيامة:1-2

[3] سورة الواقعة:75

[4] الكشاف للزمخشري:266/6

[5] سورة القيامة:03

[6] البرهان في علوم القرآن:104/3

[7] الخصائص،لابن جني،ج2،تح:محمد علي النجار،دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع،(دط)،بيروت،1957م،ص360

فالحذف في رأي"ابن جني"يعتري الجملة والمفردة والحرف والحركة،وقد يتناول الحذف أيضا المبتدأ(م)والخبر(م إ) والفعل كما يمكن أن يتناول المتمم(مم) وهو يتناول الكلمة والكلمتين أوالعبارة والفقرة...

يبقى"الحذف "من الظواهر اللغوية التي لا يمكن الاستغناء عنها،وخاصة في اللغة العربية.

* الذكر: هو ما يقابل الحذف،وتتمركز فيه عناصر الابداع،إذ لا تقتصر على الحذف وحده،ويكثر ذكر المبتدأ،الضمير عند الحديث عن الصِّفات الالهية والأسماء الله الحسنى،كما جاء في قوله تعالى:﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ الملِكُ القَدُّوسُ السَّلاَمُ المومِنُ المهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ،هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المصَوِّرُ لَهُ الاَسْمَاءُ الحُسْنَى..﴾[1]

جاء في(الكشاف)تفسير هذه الآية الكريمة،ففي﴿القَدُّوسُ﴾بالضمّ والفتح –وقد قرىء بهما – البليغ في النزاهة عمّا يستقبح،ونظيره :السبّوح،وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس ربّ الملائكة والرّوح،و﴿السَّلاَمُ﴾بمعنى السلامة ومنه ﴿دَارُ السَّلاَمِ﴾وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النّقائص أوفي إعطائه السلامة و﴿المومِنُ﴾واهب الأمن وقرىء بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار.[2]

فذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة الضمير ست مرّات ليكون لكل اسم من الأسماء الحسنى ترسيخ في نفس سامعه،بارتباطه بمبتدئه المذكور،وفيه توضيح أكبر لتلك الأسماء الحسنى مع هذا الذكر.

وهذه الفائدة المعنوية للذكر تعضدها فائدة موسيقية تتجلّى في التناسق الموسيقي المتأتى منه،وكل هذه الحالات ملاحظة في نصوص"ابن القيم"من خلال(مفتاح دار السعادة).

[1] سورة الحشر:23-24

[2] الكشاف للزمخشري:85/6



يقول"ابن القيم":"فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة،وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لومرّت بها ساعة من الزمن فسدت وأنتنت،كيف استخرجها ربّ الأرباب العليم الخبير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئة...كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما،كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبّة...وساقهما من أعماق العروق والأعضاء،وجمعها في موضع واحد،جُعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده،ولا برد يجمّده،ولا عارض يصل إليه،ولا آفة تتسلّط عليه."[1]

يمثل هذا المثال مجموعة من التراكيب الاسنادية،والذي يعنينا منها هوتلك المركّبات التي يحذف منها المسند،المسند إليه،المتمم.

فالجملة(استخرجها ربّ الأرباب) قد اكتمل فيها أركان الاسناد وهي (م ــم إ ــمم)بينما يلاحظ الحذف في هذه الجمل:

- كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى..
- كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبّة...

فما هو المحذوف هنا ؟ أهو(م) أم (م إ) أم (مم)؟

ولمعرفة ذلك لابّد من وجود الدليل على المحذوف "وهو أهمّ شروط الحذف فلابّد من وجود قرينة تدلّ على العنصر أو العناصر التي يريدها المتكلّم ويستغني عن ذكرها بدلالة القرينة."[2]

فالقرينة إذن هي شرط من شروط الحذف،فلابّد من وجودها لتدلّ على العنصر أوالعناصر التي يريدها المتكلّم،ويستغني عن ذكرها بدلالة القرينة.

[1] مفتاح دار السعادة:2/6-7

[2] ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي،طاهر سليمان حمودة،الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، الاسكندرية، 1988م، ص116

فالمحذوف في هذه الجمل هو الفاعل (م إ)وهو"ربّ الأرباب"كما حذف فعل الأمر"أنظر"(م) والقرينة التي تدلّ عليه هي قوله:"فانظر الآن إلى النطفة... كيف استخرجها رب الأرباب العليم."

ويمكن تقدير المحذوف كما يلي:

- أنظر كيف جمع رب الأرباب سبحانه بين الذكر والأنثى...
- أنظر كيف قادها رب الأرباب بسلسلة الشهوة والمحبّة...

وفي الأخير يبقى"الذكر والحذف"من الظواهر اللغوية التي تحتاجها اللغة العربية في تطبيقاتها وهي خاصية من خصائص لغة"ابن القيم"مما أتحف أساليبها وأكسبها رونقا جميلا في عالم البلاغة والبيان.

## المبحث الثالث: الاستثناء والقصر

تعدّ ظاهرة"الاستثناء والقصر"من الظواهر اللغوية والنحوية،وأيضا خاصية من خصائص لغة "ابن القيم"التي عالجها في كتابه(مفتاح دار السعادة)،وفي ذلك عرّف"ابن مالك"هذه الظاهرة بقوله: "هو المخرج تحقيقا أوتقديرا من مذكور، أو متروك ب"إلاّ "أو"ما"في معناها بشرط حصول الفائدة."[1]

ومثال ذلك قوله تعالى:﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعونَ إلاَّ إِبْلِيسَ..﴾[2] فإنّ فيه معنى زائدا على الاستثناء،هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة،وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم.[3]

أو:"إنّه الإخراج ب"إلاّ"أو إحدى أخواتها لما كان داخلا في الحكم السابق عليها."[4] ،ومثال ذلك في قوله تعالى:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالاَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ..﴾[5] فإنّه سبحانه وتعالى لما علم أنّ وصف الشقاء يعمّ المؤمن والعاصي

---

[1] أوضح المسالك،لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، ج2،دار الجيل للنشر والتوزيع،ط5،بيروت،(دس)،ص249

[2] سورة الحجر:30-31

[3] البرهان في علوم القرآن:ص651

[4] النحو الوافي،عباس حسن، ج2،دار المعارف للنشر والتوزيع،ط9،القاهرة،(دس)،ص 316

[5] سورة هود:106-107

والكافر،استثنى من حكم بخلوده في النار بلفظ مطمع،حيث أثبت الاستثناء المطلق وأكّده بقوله:﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لماَ يُرِيد..﴾[1] أي:أنّه لا اعتراض عليه في إخراج أهل الشقاء من النار ولما علم أنّ أهل السعادة لا خروج لهم من الجنة،أكّد خلودهم بعد الاستثناء بما يرفع أصل الاستثناء حيث قال:﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ..﴾[2] أي:غير منقطع ليعلم أنّ عطاءه لهم الجنّة غير منقطع وهذه المعاني زائدة على الاستثناء اللغوي.[3]

والاستثناء بهذا المفهوم هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور أو متروك بأداة النفي"إلاّ "أو"ما" في معناها،أو بإحدى أخواتها شرط حصول الفائدة والاستثناء عند"أبي الهلال العسكري على ضربين: "أحدهما أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره،فتكون الزيادة التي قصدتها،والثاني استقصاء المعنى والتحرّز من دخول النقصان فيه..."[4]

فالاستثناء في نظر"أبي الهلال العسكري"على ضربين:أحدهما توكيد المعنى والزيادة فيه،والثاني استقصاء المعنى والتحرّز من دخول النقصان فيه.

وقد جاء عند "ابن هشام":"ويستثنى ب"ليس"أو"ب"لا يكون أو"ب"ما خلا أو"ب"ماعدا "طلقا"،أو"ب"إلاّ بعد كلام تامّ موجب،أو غير موجب،وتقدّم المستثنى نحو قوله تعالى:﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُم..﴾[5] ،وغير الموجب:إنّ ترك فيه المستثنى منه فلا أثر فيه ل"إلاّ"ويسمى مفرغا."[6]

جاء في(الكشاف)للزمخشري تفسير هذه الآية ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ..﴾أي:فكرعوا فيه،﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُم..﴾وقرىء:"غرفة"بالفتح بمعنى المصدر،وبالضم بمعنى المغروف،قرأ أبي الأعمش:"إلا قليلا"بالرّفع

---

[1] سورة هود:107

[2] سورة هود:108

[3] البرهان في علوم القرآن:ص652

[4] الصّناعتين،لأبي هلال العسكري،المكتبة العصرية،(دط)،بيروت،1986م،ص408

[5] سورة البقرة:249

[6] شرح شذور الذهب،ابن هشام،دار الجيل للنشر والتوزيع،(دط)،بيروت،(دس)،ص259

وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانبا،وهو باب جليل من علم العربية فلما كان معنى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ..﴾ في معنى فلم يطيعوه،حمل عليه،كأنّه قيل:فلم يطيعوه إلاّ قليلا منهم.[1]

والمستثنى من قوله تعالى:﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي..﴾هذه الآية تقوية لمن ذهب إلى أنّ "الاستثناء"المتعقب للحمل لا يتعيّن إلا الأخيرة لاحتمال عودة إلى ماقبلها ورد على من منع ذلك محتّجا بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بأجنبي من الاستثناء.[2]

ومن خلال القول الذي أوردناه"لابن هشام"يتّضح أنّ أدوات الاستثناء كثيرة،ويستثنى ب"إلاّ "بعد كلام تام موجب،أوغير موجب وتقدّم المستثنى،وغير موجب إن ترك فيه المستثنى منه،فلا أثر فيه ل"إلاّ "ويسمى مفرغا،ومن معاني الاستثناء إفادة القصر،و"القصر"تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان،كقولك:زيد شاعر لا منجم،لمن يعتقده شاعرا ومنجما،وللقصر طرق أربعة:"أحدهما:طريق العطف،كما في قصر الموصوف على الصِّفة إفرادا أوقلبا حسب مقام السامع:عمر شاعر لا منجّم،وما عمر منجم بل شاعر.ثانيهما:النفي والاستثناء،كما تقول في قصر الموصوف على الصِّفة إفرادا أو قلبا:ليس زيد إلاّ شاعرا،أو ما زيد إلاّ شاعر،وفي قوله تعالى:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ..﴾[3] ثالثها:استعمال إنّما:كما تقول في قصر الموصوف على الصِّفة قصر إفراد:إنّما زيد جاء...، رابعها: التقدير،كما تقول في قصر الموصوف على الصِّفة:تميمي أنا."[4]

ومن خلال هذا يتّضح أنّ من معاني الاستثناء إفادة القصر،وله طرق أربعة وهي:طريق العطف،النفي والاستثناء،استعمال إنّما،التقدير:كما تقول في قصر الموصوف على الصِّفة.

---

[1] الكشاف:475/1

[2] المصدر نفسه:475/1

[3] سورة آل عمران:144

[4] مفتاح العلوم،لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي،حقّقه وقدّم له:الد.عبد الحميد هنداوي،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،1420هـ/2000م،ص400-401

ومن أمثلة"الاستثناء والقصر"في(مفتاح دار السعادة)كثيرة ومستفيضة ومن ذلك قول"ابن القيم:"...إنّ كمال النّفس وسعادتها المستفاد عن الرسل صلوات الله عليهم ليس عندهم اليوم منه حسّ،ولاخبر،ولاعين،ولا أثر فهم أبعدُ الناس من كمالات النفوس وسعادتها.وإذا عرف ذلك،وأنّه لابّد للنفس من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلاّ به،ولا تكمل إلاّ بحبّه وإيثاره.وقطع العلائق من غيره،وأنّ ذلك هو النهاية وغاية ومطلوبها ومرادها الذي إليه ينتهي الطّلب،فليس ذلك إلاّ الله الذي لا إله إلاّ هو قال تعالى:﴿أَمْ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الاَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةً إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا..﴾[1] وليس صلاح الانسان وحده وسعادته إلاّ بذلك،بل وكذلك الملائكة والجنّ،وكل حي شاعر لاصلاح له إلاّ بأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده وغاية مراده..."[2]

جاء في تفسير (الكشاف)أنّ هذه(أم)المنقطعة الكائنة بمعنى"بل"و"الهمزة"،قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها،والمنكر وهو اتخاذهم ﴿ءَالِهَةً مِّنَ الاَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ..﴾الموتى،ولعمري أنّ من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ،فإن قلت:كيف أنكر عليهم اتّخاذ آلهة تنتشر؟ وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟وكيف أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنّهم كانوا- مع إقرارهم لله تعالى- بأنّه خالق السموات والأرض.[3]

والآية﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهَ لَفَسَدَتَا..﴾ فإن قلت:ما منعك من الرّفع على البدل؟ قلت:لأنّ "لو"بمنزلة"إن"في أنّ الكلام معه موجب والبدل لا يسوّغ إلاّ في الكلام غير الموجب،فإنّ المبتدأ في الآية أخصّ لشيء لأنّه ضمير،وأيضا فلا ينبني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم،وتخصيص الانشار بهم،لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ومعناه:لو كان فيهما إله غير الله شريكا لله لفسدتا،لو

[1] سورة الأنبياء:21-22

[2] مفتاح دار السعادة:33/3

[3] الكشاف:134/4-135

لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا،والمقصد من قوله(هم ينشرون)إلزامهم ادِّعاء صفات الألوهية لآلهتهم،حتى يتحرّى أنّهم الذي اختاروا القسم الذي أبطله الله تعالى.[1]

إذن فالطريق الذي سلكه"ابن القيم"في هذه الفقرة هو"الاستثناء"بأداة النفي"لا" أو"ليس"و"إلا" حتى غدا ذلك واضحا بجلاء في كتابه.

ومن الملاحظ أيضا في هذه الأمثلة أنّ"ابن القيم"يبدأ بالأسلوب التقريري المباشر،ويعدل عنه بأسلوب الاستثناء،لا لشيء سوى أنّ"الاستثناء"يخدم المعنى من جهتين:"أولا:أن يأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره،فتكون الزيادة التي قصدتها،ثانيا:استقصاء المعنى والتحرّز من دخول النقصان عليه..."[2]

وإذا تأمّلنا هذه الفقرة المقتضبة من نص"ابن القيم"،فسنجد أنّ"ابن القيم"كان يحيط بهذه المعاني الدقيقة، والفروق اللغوية والدلالية لأدوات الاستثناء،وكل الأدوات الأخرى ويجيد توظيفها في الكتابة،فتغدو المعاني والألفاظ لا تتجاوز بعضها بعضا.

وعندما يثبت"ابن القيم"للقارىء هذه المعاني،وكأنّ به يخاطب من يجهلها،بل ينكرها وهي الفئة الغالبة من المسلمين في زمانه وفي غير زمانه،أوكأنّ به يقدّمها لمن سينكرها عليه،وهو إثباته أنّ الاكمال للنّفس ولا سعادة لها إلاّ بحبّ الله عزّ وجل الذي لا إله إلاّ هو.[3]

ولعلّ هذا الحسّ الذي أثبتناه "لابن القيم"تدلّ عليه أشياء كثيرة منها أولا:ما يدلّ عليه السّياق في بداية الكلام،إذ يقول:"إنّ كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل – صلوات الله عليهم- ليس اليوم منه حس،ولاخبر،ولاعين ولا أثر فهم أبعد الناس من كمالات النفوس وسعادتها." ثانيا: تكرار أسلوب الاستثناء في الفقرة السابقة (لا...إلا)و(ليس...إلا).

[1] الكشاف:136/4

[2] ينظر (مفتاح العلوم) للسكاكي:ص 402-403

[3] مفتاح دار السعادة:34/3-35



ومن أمثلة"الاستثناء"أيضا في(مفتاح دار السعادة)مايلي: فيقول:"من المعلوم بالضرورة أنّه ليس في السماء حَمَلُ ولاثَوْرُ ولا حيّة ولا عقرب ولا دبّ ولا كلب ولاثعلب(*) ،إلاّ أنّ المتقدِّمين لما قسّموا الفلك إلى اثني عشرة قسما،وأرادوا أن يميِّزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصة:شبّهوا الكواكب المذكورة في تلك القطعة المعيّنة بصورة حيوان مخصوص،تشبيها بعيدا جدّا."[1]

إذن فالطريق الذي سلكه"ابن القيم"في هذه الفقرة هو"الاستثناء"بأداة النفي "ليس" و"لا" و"إلا".

ويقول أيضا:"وحاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء،ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها،ألا ترى أنّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب،ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة..."[2] ، وهنا أيضا في هذه الفقرة قد استعمل الاستثناء بأداة النفي "لا" و"إلاّ."

وإذا تأملنا هذه النماذج المقتضبة من نصوص"ابن القيم"،فسنجد أنّه يحيط بالمعاني الدّقيقة لأدوات "الاستثناء"و"القصر"وبصفة قليلة للقصر،هذا يعني تمكّن"ابن القيم"من هذه المفاهيم اللغوية.

## المبحث الرابع: مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه

تعتبر هذه الخاصية من خصائص لغة"ابن القيم"التي اتّخذها واستعملها في(مفتاح دار السعادة) ليبيّن لنا أنّه استطاع أن يوفِّق بينها وبين خصائص أخرى وكان لها من الايقاع الموسيقي القويّ الذي تركته في المعاني والألفاظ،ومن ذلك يعرِّف "الد.عبد القادر عبد الجليل"المشاكلة قائلا:"المشاكلة لغة هي المماثلة والموافقة والنظير،واصطلاحا هي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته وبنيتها تؤكّد المدار التكراري."[3]

*- إشارة إلى ترتيبات الكواكب والنجوم التي سمّاها الفلكيون أبراجا.

[1] مفتاح دار السعادة:48/3

[2] المصدر نفسه:318/2

[3] الأسلوبية،عبد القادر عبد الجليل،دار صفاء للنشر والتوزيع،ط1،عمان،2002م،ص535

فالمشاكلة هي سمة أخرى في مؤلفات"ابن القيم"ومنها (مفتاح دار السعادة)حيث يقتبس من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه،لأنّ القرآن الكريم هو خير مثال عن ذلك،ومنه يتخيّر حروف الكلمة ويُنتقى أصواتها صافية الذوق في مخارجها لذيذة السماع طيّبة المجرى على اللسان معتدلة في تأليفها،خفيفة في الفم،نازلة على أحسن هيئة في الايقاع،قويّة الايحاء شديدة البعث لما تتضمّنه من المعاني المرادة والأهداف المقصودة من الآية الكريمة.

ومشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه واضحة في(مفتاح دار السعادة)في مواضع كثيرة،منها يقول"ابن القيم":"أخبر تعالى أنّ ما قدّمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إيّاهم،وأنّه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه."[1]

وفي القرآن الكريم ما يشبه هذا النسق كقوله تعالى:﴿وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُ بمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المومِنينَ..﴾[2]

فجاء تفسير﴿وَلَوْلاَ﴾الأولى امتناعية وجوابها محذوف،والثانية تحضيضية وإحدى الفائين للعطف،والأخرى جواب لولا،لكونها في حكم الأمر،من قبل أن الأمر باعث على الفعل،والباعث والمحضض من واد واحد،والمعنى:ولولا أنّهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّمت من الشرك والمعاصي:هلا أرسلت إلينا رسولا،محتجين علينا بذلك:لما أرسلنا إليهم،يعني:أن إرسال الرسول إليهم إنّما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها،﴿ لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المومِنينَ..﴾فالمقصود بأن يكون سببا لإرسال الرسل،ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها،جعلت العقوبة كأنّها سبب الإرسال بواسطة القول،فأدخلت عليها لولا،وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية،ويؤول معناه إلى قولك:ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.[3]

[1] مفتاح دار السعادة:12/3

[2] سورة القصص:47

[3] الكشاف:510/4



فلنلاحظ العبارات الواردة في النص:

- قدّمت أيديهم : جاءت هذه العبارة تماما كما وردت في الآية الكريمة.

- أرسل: توافق زمني بين النص والآية الكريمة.

ويقول أيضا:"ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربّه ومليكه،ولم يؤمن بأنّه لا إله يعبد،ويحبّ ويخشى ويخاف غيره،بل أشرك معه في عبادة غيره،فهو كافر به مشرك شركا لا يغفره الله."[1] وقريبا من عبارة"ابن القيم"قوله تعالى:﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..﴾[2] ففي هذه الآية تكرير للتأكيد، وقيل:كرّر لقصة طعمة،وروي:أنّه مات مشركا وقيل:جاء شيخ من العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:إني شيخ منهمك في الذنوب،إلا أني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به،ولم أتخذ من دونه وليا،ولم أوقع المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له،وما توهّمت طرفة عين أني أعجز الله هربا،وإني لنادم تائب مستغفر.[3]

وفي موضع آخر يقول "ابن القيم":"فأخبر أنّ من أحبّ شيئا سوى الله مثل ما يحبّ الله،فقد اتّخذ من دون الله أندادا."[4] ،حيث أخذ "ابن القيم"هذا المعنى من قوله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ..﴾[5]

وجاء في تفسير هذه الآية الكريمة﴿أَنْدَادًا﴾أمثالا من الأصنام،وقيل:من الرّؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم،واستدل بقوله:﴿إِذْ تَبرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا..﴾ومعنى﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾:يعظّمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب﴿كَحُبِّ اللهِ..﴾كتعظيم الله،والخضوع له،أي:كما يحب الله تعالى،على أنّه مصدر من المبني المعلوم،وإنّما استغنى عن ذكر من

---

[1] مفتاح دار السعادة:28/3

[2] سورة النساء:116

[3] الكشاف:149/2

[4] مفتاح دار السعادة:28/3

[5] سورة البقرة:165

يحبّه لأنّه غير ملبس.وقيل:كحبِّهم الله،أي: يسوّون بينه وبينهم في محبتهم،لأنّهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه.[1]

ويقول أيضا:"فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف،والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف،ولذلك من خلف شيئا غير الله سُلِّطَ عليه،وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه،ولو خاف الله دونه،ولم يَخَفْهُ لكان عدم خوفه منه وتوكّله على الله من أعظم أسباب نجاته منه."[2]

والملاحظ في هذه العبارة قصر الفواصل،وكل هذه الفواصل أفعال وأسماء،فيلاحظ تكرار الفعل"خاف"(ثلاث مرات)، وتكرار كلمة"المخاوف"(مرتان)،وكلمة"الخوف"(مرتان)،وكلّها ذات دلالة واحدة،وهي"الخوف"وفي هذا يقول الله تعالى:﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالاَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ..﴾[3]

وجاء في تفسير الكشاف﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ﴾لتخويفكم شيئا مأمون الخوف،لا يتعلّق به ضرر بوجه﴿و﴾أنتم،﴿لاَ تَخَافُونَ﴾ما يتعلّق به كل مخوّف،وهو إشراكهم بالله،ما لم ينزل بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾أي:حجّة،لأنّ الاشراك لا يصحّ أن يكون عليه حجّة،كأنّه قال:ومالكم تنكرون على الأمن،في موضع الأمن،ولاتنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف،ولم يقل:فأينا أحق بالأمن، أنا،أم أنتم احترازا من تزكية نفسه،فعدل عنه إلى قوله﴿ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ﴾يعني:فريقي المشركين والموحّدين ثمّ استأنف الجواب عن السؤال بقوله:﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ..﴾أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم.[4]

[1] الكشاف:354/1

[2] مفتاح دار السعادة:387/3

[3]سورة الأنعام:81

[4] الكشاف:369/2

ويقول أيضا:"تأمّل العبرة في وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام،وأدلّه على كمال قدرة خالقه،وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه،...ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أنّ العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم،قدّره أحسن تقدير،ونظّمه أحسن نظام،وأنّ الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل إله واحد،لا إله إلا هو،تعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيرا،وأنّه لو كان في السموات الأرض إله غير الله لفسد أمرهما."[1]

اقتبس"ابن القيم"قوله:"وأنّه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما."من الآية الكريمة قول الله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهَةً إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ..﴾[2]

ونموذج آخر يقول أيضا"ابن القيم":"...والطِّيرة سبب للمكروه على المتطيِّر،فإذا توكّل على الله،ووثق به واستعان به لم يصدّه التّطيّر عن حاجته،وقال:اللهم لا طير إلاّ طيرك،ولا خير إلاّ خيرك،ولا إله غيرك،اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت،ولا يذهب بالسيِّئات إلا أنت،ولا حول ولا قوة إلا بك.."[3]

وقريب من هذه العبارة قوله سبحانه وتعالى:﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ..﴾[4] ففي تفسير هذه الآية أنّ﴿الحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء،وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصحُّ أن يعلم ويقدّر،و﴿ القَيُّوم﴾الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه،وقرء:القيام والقيم والسنة:ما يتقدّم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس...أي لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم،لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيّوما.[5]

---

[1] مفتاح دار السعادة:47/2

[2] سورة الأنبياء:22

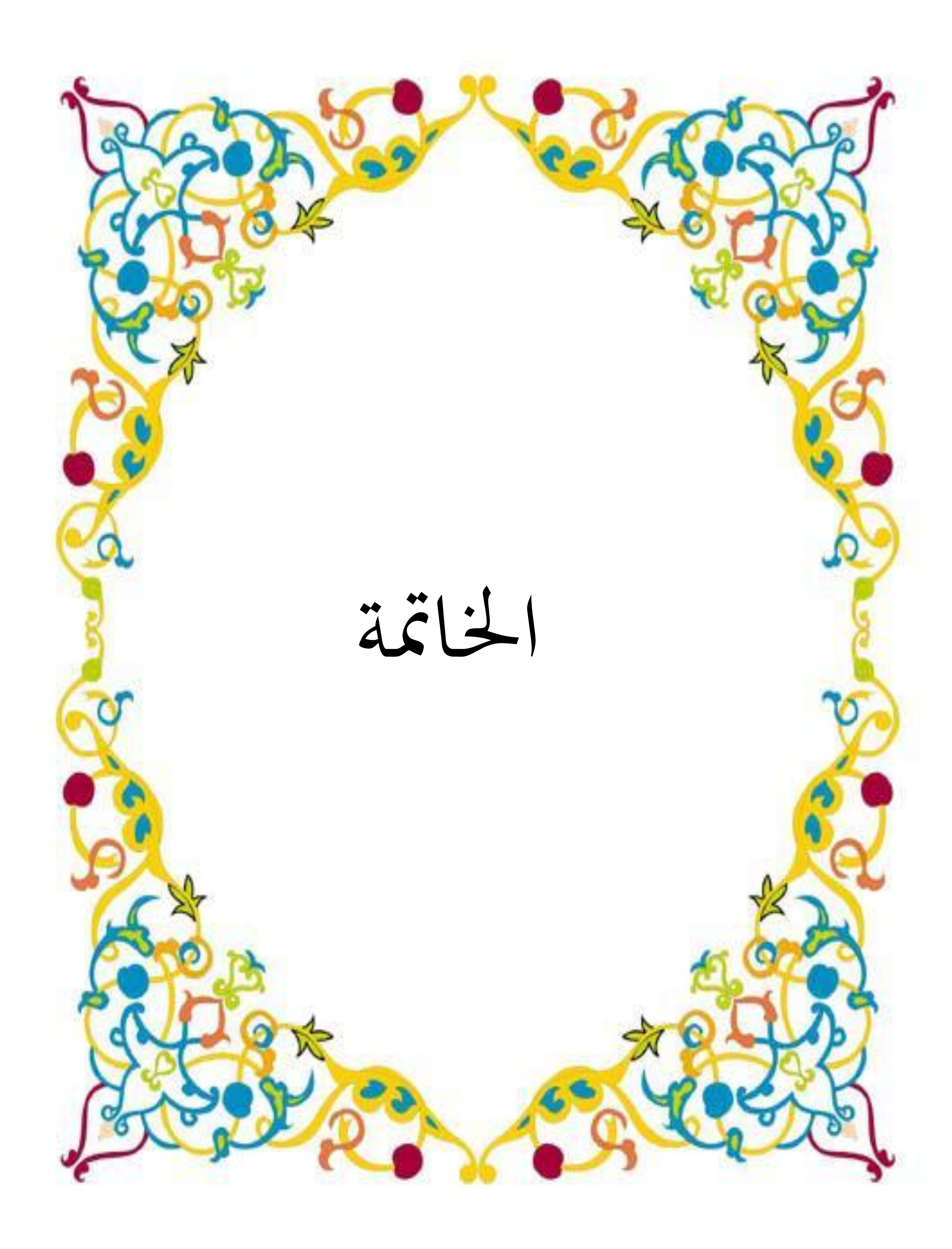
[3] مفتاح دار السعادة:386/3-387

[4] سورة البقرة:255

[5] الكشاف:480/1-481

وهكذا يقتبس"ابن القيم"من القرآن الكريم ما يوافق ويماثل أقواله في(مفتاح دار السعادة)من أساليبه العالية ويضمّن تراكيبه،فأضفى على لغته مسحة خاصّة،وتوحي بمدى تأثّره ببيان القرآن الكريم وتعلّقه بأساليبه وإعجازه،حيث نجد في النص القرآني ألفاظا وتعبيرات معروفة ومألوفة يستخدمها الأدباء البلغاء من البشر،لكنّها تبقى جامدة،فعندما تتناولها الرّيشة القرآنية المعجزة فإنّها سرعان ما تدبّ فيها الحياة الشاخصة والحركة المجدّدة ذات أرواح ومشاهد حيّة.

وبهذا يعتبر"ابن القيم"علم من أعلام الأمّة الاسلامية الذي أنار بقلمه وعلمه ظلمات الجهل،وبمعرفته وإطلاعه لهذه الأمور البلاغية والنحوية واللغوية وغيرها جعلته يتفوّق في كل مجال من المجالات – فرحمة الله تعالى عليه –



# الخاتمة

بعد عرض مادّة هذا الموضوع،والغوص في أرجائه لنصل إلى خلاصة القول:

لقد ساهم العلامة الجليل،أحد المفكّرين الكبار الاسلاميين"ابن قيم الجوزية"بقسط وافر في مجال العلم،وأدلى بدلوه فيه. حيث تتلمذ على كثير من العلماء الذين كان لهم باع كبير وصيت وشهرة،ولهم الفضل إلى ما وصل إليه هذا الشيخ الفضيل،فتعدّدت مكتبته بكتب متنوّعة وجمّة الفائدة منها(مفتاح دار السعادة)الذي وضع بصمته فيه،وصُبغ بصبغة علمية مميّزة، وأصبح مادّة جاهزة وسهلة لمن يعود إلى هذا الكنز العظيم.

ويمكن تحديد النتائج المتوصّل إليها من خلال البحث:

-إنّ الامام"ابن القيم"-رحمه الله-نشأ في أسرة ذات علم وفضل،فكانت السبب الرئيسي في تكوين شخصيته العلمية.

- بدأ الاشتغال بالعلم في سن مبكرة "سن السابعة".

- إنّ موضوع الكتاب(مفتاح دار السعادة)يدور حول"العلم والإرادة".

- يعدّ منهج"ابن القيِّم"منهجا مميزا،وفيه من المميِّزات المهمّة في نصوصه.

- يعتبر هذا الكتاب مرجعا أساسيا في علم أصول الفقه.

- أمّا عن خصائص لغة"ابن القيِّم"في(مفتاح دار السعادة)هي مختلفة ومتنوّعة منها:خصائص لغوية،أسلوبية...وغيرها،ولكن مجال دراستي وتطبيقي حول "الخصائص التركيبية"عنده،وفي نظام التراكيب سجّلت النقاط الآتية:

أ- التقديم والتأخير:فعناصر الاسناد قد يتقدّم بعضها على بعض،فتارة يقدِّم "ابن القيم"المسند كركن أوّل،وتارة يقدِّم المسند إليه،وتارة أخرى يقدّم المتمم،ولكن "ابن القيم"في جميع هذه الحالات يقتضي في نظمها آثار المعاني،ويرتّبها في كلامه على حسب ترتّب المعاني في النّفس،وتتبيّن قدرته في البلاغة والبيان،حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر،وهو روعة موسيقى العبارة،واكتمال جمالها الفني،ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

**ب**- الذكر والحذف:فقد يحذف"ابن القيم"(المبتدأ) ويذكر(الخبر)،وقد يذكر المبتدأ ويستغني عن ذكر الخبر بإتيان قرينة أو دليل عليها،وقد يتناول الحذف(المتمم).وفي أحيان أخرى يحذف "ابن القيم"(م)و(م إ)حينما يدلّ عليها دليل أو قرينة من القرائن،وعلى قدر معرفة "ابن القيم" للأماكن التي يحسن فيها الذكر أوالحذف،تبيّن مكانته في الفصاحة وامتلاكه لناصية البيان.

**ج**-الاستثناء والقصر:هي ظاهرة لغوية جليّة أيضا في(مفتاح دار السعادة)إذ كثيرا ما يستهل معنا بأسلوب الاستثناء،ولأنّ الاستثناء يخدم المعنى من وجهين:

* أن يأتي معنى يريد توكيده والزيادة فيه فيستثني بغيره،فتكون الزيادة التي قصدها.

* استقصاء المعنى والتحرّز من دخول النقص فيه.

**د**- مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه:وهي من الظواهر الأخرى التي يمكن أن نسجّلها في(مفتاح دار السعادة)في مواضع كثيرة،حيث يقتبس"ابن القيم"من القرآن الكريم،فأضفى على لغته مسحة خاصّة،وهي توحي بمدى تأثر"ابن القيم" ببيان القرآن الكريم وتعلّقه بأساليب وإعجازه.

وفي الختام لا يسعني في هذا المقام إلاّ التضرع إلى الله عزّ وجلّ شاكرين له على ما منّ علينا من نعمة العلم،ونأمل أنّنا قد وفقنا في بحثنا هذا المتواضع وعرضنا لأفكاره وقضاياه التي لاريب في أنّها ناقصة،فالكمال لله عزّ وجلّ فإن كان فيه من صواب وتوفيق فمن الله تعالى،وإن كان فيه من زلل وخطأ فمن الشيطان –عليه لعنة الله تعالى- فنستغفره تعالى على ما وقع منّا من زلّة وخطأ بسبب عجزنا وتقصيرنا،وضعف قوّتنا،وقلّة بضاعتنا،وهو المعين.



# قائمة المصادر والمراجع

# قائمة المصـادر والمـــــراجع

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع*

## المصادر والمراجع:


1. ابن جني(أبو الفتح عثمان بن جني)،الخصائص،تح:محمد علي النجّار،دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، (دط) ، بيروت،1957م.
2. ابن قيِّم الجوزية(شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر)،الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن،إشراف:لجنة تحقيق التراث،مكتبة الهلال،(دط) ،بيروت،(دت).
3. ابن قيِّم الجوزية(شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر)،القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقِّعين،إعداد:أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، تقديم:فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد،دار ابن القيِّم،دار ابن عفان،(دط)،(دم)،(دت).
4. ابن هشام،شرح شذور الذهب،دار الجيل للنشر والتوزيع،(دط)،بيروت،(دس).
5. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سبويه،الكتاب،تح وشرح:عبد السلام محمد هارون ،الناشر: مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة،1408هـ/1988م.
6. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد الجرجاني النحوي،دلائل الإعجاز،قرأه وعلّق عليه:أبو فهر محمود محمد شاكر،(دط)،(دس)، (دت).
7. أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن عبد هشام الأنصاري ، أوضح المسالك،دار الجيل للنشر والتوزيع،ط5،بيروت،(دس).
8. أبو هلال العسكري(الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران اللغوي)،الصِّناعتين،المكتبة العصرية،(دط)،بيروت،1986م.

9. أبو يعقوب يوسف بن محمدبن علي السكاكي،مفتاح العلوم ،حقّقه وقدّم له:الد. عبد الحميد هنداوي،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1420 هـ/2000م.

10. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي،البرهان في علوم القرآن،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الجيل،(دط)،بيروت، 1408هـ/1988م.

11. بكر بن عبد الله أبو زيد،ابن قيّم الجوزية حياته وآثاره وموارده، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ط1،المملكة العربية السعودية، 1412 هـ.

12. جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل،تح وتعليق ودراسة:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود/علي محمد معوّض،مكتبة العبيكان ط1،الرياض،1418هـ/1998م.

13. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر، ط2،(دم)،1399هـ/1979م.

14. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية،مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة،قدّم له:علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري،راجعه:فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد،دار ابن عفان للنشر والتوزيع،ط1،المملكة العربية السعودية 1416هـ/1996م.

15. صلاح الدين خليل بن إيبك الصّفدي،الوافي بالوفيات،طالعه:يحي بن حجى الشافعي بن إيبك الصّفدي أحمد بن مسعود،تح:أحمد الأناؤوط،دار الإحياء التراث العربي،ط1،بيروت ، 1420هـ/2000م.

16. طاهر سليمان حمودة،ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي،الدار الجامعية للطباعة والنشروالتوزيع،(دط)،ا لاسكندرية 1998م.

17. عباس حسن،النحو الوافي،دار المعارف للنشر والتوزيع،ط9،القاهرة،(دس).

18. عبد الفتاح لاشين،ابن القيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرّائد العربي، ط1،بيروت 1402هـ/1982م.

19.عبد القادر عبد الجليل،الأسلوبية،دار صفاء للنشر والتوزيع،ط1،عمان،2002م.

20.عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي القرشي،البداية والنهاية،تح:د/عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والاسلامية،دار الهجر للطباعة والنشر والتوزيع،ط1،(دم)، 1419هـ/1998م.

21.عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي القرشي،البداية والنهاية ،مج7، إعتنى بهذه الطبعة ووثّقها عبد الرحمن اللّاذقي ومحمد غازي بيضون،دار المعرفة، ط9، بيروت، 1426هـ/2005م.

22.فارس محمد عيسى،علم الصرف منهج في التعليم الذاتي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، عمان،2000 م.

23.محمد بن علي الشوكاني،البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،دار الكتاب الإسلامي (دط)،القاهرة،(دت).

24.معجم الوسيط،مجمع اللغة العربية(الادارة العامّة للمعجمات وإحياء التراث)،جمهورية مصر العربية،ط1،مكتبة الشروق الدولية،1425هـ/2004م.



# فهرس الموضوعات

# فهرس الموضوعات